توفيق الحكيم

عهد الشيطان

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التي غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ونـدر ونشر دار ماكملان — لندن .

ـــ يا شيطان الفن ! لقد منحتك كل شيء .

كل قطرة من قطرات دمى هى لك .

وكل خلجة من خلجات نفسى هى لك .

فإن ظفرت بساعة من ساعات الهناء فهى لك .

وإن نمت فأنت ملك على عرش أحلامى .

وإن أفقت فأنت المالك لزمام أيامى .

شبحك لا يذهب عنى فى أى زمان ولا أى مكان .

إنك لا تتركنى إلا وقد صرعنى المرض .

ولم يبق فى رأسى الكليل ولا جسمى النحيل شيء تأخذه .

فإذا فتحت بعدئذ عينى قليلا وبدرت بادرة يقظة فهى أيضا لك .

يا شيطان الفن ! لقد أخذت منى كل شيء .

فماذا أعطيتنى أنت ؟!

ـــ أعطيتك لذة « الخلق » .. !

تلك اللذة التى لا يعرفها غير إلٰه !..

عهـــد الشيطان

وقع ذلك الحدث الذى أرويه فى ليلة من ليالى الشتاء فى منتصف الليل ... فى تلك الساعة الرهيبة التى أجمعت الأساطير على أن فيها يحدث كل جلل من الأمر . وكنت جالساً إلى مكتبى أقرأ تحت نور ضئيل . وقد تكدست أمامى كتب يعلوها التراب . وكان الكتاب المفتوح بين يدى قصة « فوست » ، وكنت قد بلغت منها تلك الصفحات التى يجلس فيها العالم الشيخ بين كتبه فى إحدى الليالى وقد تهدل شعره الأبيض على منكبيه وهو قانط من العلم ، راغب عن الحياة التى تمنحه من المعرفة ما كان يحسب أن فى مقدورها أن تعطيه البشر . وقد جلس يحصى على نفسه تلك الثمانين من الأعوام التى عاشها . ماذا صنع فيها ؟ وماذا ربح ؟ إنه لم يعرف الشباب قط . و لم يدخل قلبه ذلك الفرح بالحياة قط . و لم تدرك نفسه معنى الطمأنينة والابتسام . حتى فى ذلك الزمن

الجميل يوم كان خلانه يقولون « الحب » كان هو يقول « المعرفة » ولقد جد حقيقة فى سبيلها وأحاط بكل ما سمح لعقل إنسان أن يحيط به . لقد أعطى العلم كل حياته . والآن وقد أوشكت تلك الحياة أن تذهب . الآن وهو فى طريق الأوبة إلى ذلك المكان المجهول الذى جاء منه . (لو أن فى الإمكان أن نسميه مكاناً !) ألا تراه عائداً إليه بصفقة المغبون ؟! أما العلم فإنه الآن يسخر منه بقدر ما يسخر هو من نفسه، إذ أضاع من أجله حياة كاملة فيها أشياء كثيرة غير العلم . إنه خارج من الحياة و لم يحمل زهرة و لم يستنشق عبيراً من ذلك البستان الفاتن بأشجاره وأنهاره ووروده وغزلانه . إنه لم يملأ قلبه بشىء . وإنما قد ملأ رأسه بكلام كثير سوف يأكله الدود ، كما قال « هاينى » ، مع ما سوف يأكل من لحم تلك الجمجمة الكبيرة ..

كل هذه الخواطر كانت تدور فى خلد العالم « فوست » وهو جالس أمام كتاب فى علم الفلك تحت نور ضئيل فى حجرة كالقبو من حجرات القرون الوسطى . و لم يكن حوله غير كتب مكدسة يعلوها التراب وغير سكون مطبق مخيف . و لم يكن بالمكان أحد.

ومع ذلك فقد سرت فى جسم العالم المتهدم رعدة . إذ شعر أنه ليس وحده فى المكان . فتردد قليلا ثم استدار بعينيه المنطفئتين يبحث فى أركان الحجرة ، فلم يجد أحداً غير ظلال نور المصباح تتلاحق فوق الحائط القاتم كالأشباح اللاعبة . فتملكه خوف لم يدر سببه ... ووضع وجهه فى كتابه يحاول القراءة ويلتمس فيها هدوء الخاطر . وإذا صوت هامس يلقى فى أذنه :

— فوست ! فوست ! لقد سمعت ما دار فى نفسك !

فجمد الدم فى عروق الشيخ ، واستطرد الصوت :

— لا تخف . ألا تعرف من أنا ؟

لم يحر العالم جوابا و لم يجرؤ على الحركة وظل فى جلسته كتمثال من الشمع .

فاستأنف الصوت :

— أنا الذى يستطيع أن يمنحك ما تطلب ...

هنا دبت القوة فى نفس الشيخ ، وزال عنه الخوف والتفت إلى مكان الصوت فأبصر وجها غريب السحنة لا يشبه وجوه البشر ، يبسم له ابتسامة عجيبة . و لم يجد لهذا الوجه جسما ، فقد

كان محاطا بالظلام . وتمالك الشيخ وتحامل ثم قال فى صوت واجف :

ـــ من أنت ؟

فنظر إليه الوجه نظرة ثانية وأجاب :

ـــ وهل يعنيك كثيراً أن تعرف من أنا ؟

ـــ من أنت ؟

ـــ دائما تريد أن تعرف . دائما حب المعرفة ! .. أيها الأحمق الفانى ! .. أما يكفيك أنى أعطيك ما تطلب ؟ كل ما تطلب ؟

ـــ من أنت ؟

ـــ الشيطان .

دهش العالم ونظر إلى الوجه من جديد ، فألفاه يبسم تلك الابتسامة التى لا تتغير . فردد فى بطء ، وهمس كأنما يخاطب نفسه :

ـــ الشيطان ..

ودنا الوجه قليلا من الشيخ وقال فى نبرة لطيفة :

ـــ أتخافنى ؟

ــ الشيطان ...

ــ لا تخف ، انتظر .

وفى الحال أبصر الشيخ ذراعين وقدمين وبقايا جسم آدمى تأتى طائرة طائعة من أنحاء الحجرة المختلفة وتلتصق بالوجه حتى صار إنسانا ، وتغير الوجه فصار كوجوه البشر ، ومد ذلك الإنسان يده إلى كرسى بجانب الشيخ ، وجلس وهو يقول كالمخاطب لنفسه : « ها أنذا إنسان مثلك ، ينبغى أن أكون إنسانا مثلك حتى تفهمنى ، إنك أيها الإنسان لا ترى إلا من كان على صورتك ! إنى فى خدمتك » .

هدأ روع العالم قليلا ، وتذكر ما كان فيه منذ لحظة من ضيق بنفسه ، وتبرم بحياته ؛ فاهتز فى مقعده وصاح :

ــ أيها الشيطان ، أعطنى .. أعطنى ..

ــ اطلب ما شئت .

ــ الشباب .

لفظها الشيخ الفانى من أعماق قلبه المتداعى ...

فأجاب الشيطان فى تؤدة :

ـــ لك ما طلبت . ولكن ... ما تعطينى أنت فى مقابل هذا ؟ إن الشيطان لا يعطى لوجه الله !

فقال الشيخ من فوره :

ـــ أعطيك العلم .. كل ذلك العلم الذى اكتنزته مدى ثمانين عاماً .

فقهقه الشيطان :

ـــ لا حاجة بى إلى هذه البضاعة ، علمك لا ينفعنى . إنى أريد منك شيئاً آخر .

ـــ ماذا ؟

ـــ نفسك .

فلم يتردد الشيخ :

ـــ هى لك .

عندئذ أسرع الشيطان ومد يده فى الهواء والتقط قرطاسا نشره تحت المصباح وتناول ذراع الشيخ ، ففزع الشيخ :

ـــ ماذا تصنع ؟

ـــ لا تفزع من شىء . أريد قليلا من دمك تكتب لى به صكا

على هذا القرطاس . هو عهد بينى وبينك : أعطيك الشباب وتعطينى نفسك ...

فأذعن الشيخ وكتب العهد بدمه ، وتناول الشيطان العهد المكتوب ، ورفع يده فى الهواء ، وعاد فوضعها على جسم الشيخ ، فإذا شيخوخته تزول عنه كما تزول الأوراق الذابلة عن الشجرة الفتية . وإذا العالم الهرم قد انقلب فتى فى العشرين جميل الطلعة بسام المحيا ، مفعم النفس بالسرور ، متوثب القلب للحب ..

* * *

لم أكد أنتهى إلى هذا الموقف من قصة « فوست » حتى طرحت الكتاب وهمت فى وادى التأملات ..

كان الذى يملك علىّ لبى فى ذلك الوقت هو حب « المعرفة » . كانت كل أحلامى أن أفتح فى كل صباح نافذة تطل على عالم مجهول من عوالم هذا الكون السابح فى بحار الأسرار . كان من يكشف لعينى المستطلعة جديداً هو الخليق عندى أن أعطيه ما شاء من نفسى . فى تلك الليلة صحت فى الحجرة :

ـــ أيها الشيطان ! أيها الشيطان ! ابرز إلىّ وخذ منى ما تشاء وأعطنى ما أريد .

ولم يبرز إلىّ بالطبع أحد . ولم تنشق الجدران ولم تكن الصيحة التى لفظتها إلا صوتا مدوياً داخل نفسى ، وهو فى الحقيقة همسة لم يبلغ صداها باب الحجرة ؛ على أننى لم ألبث أن رحت فى شبه إغفاءة . نصب فيها الخيال مسرحاً ، وإذا الشيطان فى ملابس « مفستو » الحمراء ، ويده على مقبض سيفه ، والابتسامة الخبيثة الساخرة على شفتيه وهو ينظر إلى قائلا :

ـــ أناديتنى ؟

فهمست :

ـــ نعم .

ـــ ماذا تريد منى ؟

ـــ المعرفة .

فضحك ضحكة عالية طويلة ، اهتزت لها الريشة القائمة على قرنه :

ـــ هل تدرك مدى هذه الكلمة ؟

ففطنت إلى مراده وصحت مستدركا :

— نعم . نعم . أدرك أنك أنت كذلك لا تحيط علماً بمدى هذه الكلمة . إنى ما أردت منك المستحيل . وما قصدت أن تعطينى « المعرفة » ذاتها . إنما أردت أن تمنحنى « حب المعرفة » . أريد أن تمنحنى تلك النفس التي تعيش للمعرفة . أريد أن تعطينى ما أخذت من « فوست » . أعطنى « نفس » فوست التى أخذتها منه . أريد أن تكون لى نفس « فوست » أو نفس « جوته » !

— وماذا تعطينى أنت فى مقابل هذا ؟

— كل ما تطلب .

— الشباب .

— هو لك .

قلتها فى غير تردد . فنظر إلىّ « مفستو » نظرة طويلة . نظرة العجب أو الإشفاق — لو أن الشيطان يشفق أحياناً — أو نظرة التاجر الماكر لصفقة خاسرة وقعت من غر قاصر . وقال :

— سوف تندم .

— أبداً .

ـــ أفهم أن يبذل كل غال فى سبيل « الشباب » . أما أن « الشباب » هو الذى يبذل ... اسمع نصحى أيها الفتى . إنى لم أعتد إخلاص النصح لأحد . ولكنى أقول لك : لا شىء فى الوجود يعوض الشباب !

ـــ المعرفة ، المعرفة ، المعرفة .

فضحك الشيطان ضحكة صغيرة هازئة ، وقال كالمخاطب لنفسه :

ـــ كان فوست يقول ذلك أيضاً فى صباه !

فقلت فى تحمس أعمى :

ـــ حب المعرفة هو شباب العقل ، هو الشباب الأبدى ، هو السمو الإنسانى الذى سجدت له الملائكة إلا أنت ، أيها المتطاول على عرش فكرنا النورانى !

ـــ عرش فكركم النورانى ! ماذا أقول لهذا الفتى ؟

ـــ إنى أعرفك وأبغضك ، إنك هنا على هذه الأرض لا عمل لك إلا أن تطفىء هذه المصابيح العظيمة التى تزين هاماتنا ، إن فى يدك عصاً طويلة كتلك التى كان يحملها « عفاريت الليل »

يطفئون بها فى مطلع الفجر « مصابيح الغاز » فى الطرقات .

— ما أسخف مصابيح الغاز !

— نعم ، ولقد ذهب عهدها بظهور الكهرباء ، واختفت معها « عفاريت الليل » بعصيها . أنت أيضاً قد آن لك اليوم أن تختفى بسيفك وريشتك ، فما من أحد يرضى اليوم أن يبيع « مصباحه » من أجل شىء .

— لقد باع « فوست » مصباحه من أجل فتاة .

— كان ذلك مصباحا من الغاز .

— من الغاز أو من الكهرباء ، النور هو دائما النور !

— يا عدو النور . أعطنى النور وخذ منى ما تشاء .

فقال الشيطان :

— O. K.

وخلع قلنسوته ومسح بها الأرض بين يدى إغراقا فى التحية على طريقة فرسان إسكندر دوماس ، وتحرك للانصراف ، فاستوقفته :

— ألا نكتب عقداً ؟

— لا ضرورة منك للعقود والعهود . إنى واثق بشرفك .

— ولكننى أنا ... معذرة .. إنى لا أثق بشرفك .

— جربنى هذه المرة .

وانحنى لى انحناءة كبيرة ثم اختفى .

* * *

مضى على تلك الليلة ثلاثة عشر عاما التهمت فيها الكتب التهاما وأحطت بمختلف العلوم والفنون علما وعشت مع الفلاسفة والأدباء والموسيقيين والمصورين وأحببت فيها « المعرفة » حباً كالجنون . فلم أكن أطيق صبراً على جهل فرع من فروعها . وكنت أحياناً لا أملك من النقود غير الضرورى لأكلى بقية الشهر وأصادف فى واجهة الحانوت كتابا أو كتابين ، فما أحجم ، وأدفع فيهما ما معى ، وأتبلغ طول أيامى بمرق الأرز ونقيع الشاى . وذهب بى الجنون إلى حد الرغبة فى الاطلاع على ما لا لزوم لاطلاع أديب عليه . فنظرت فى كتب الفلك والعلوم الروحانية والرياضيات العليا . وكانت أيام راحتى تنفق فى هياكل الفن ومتاحف التاريخ الطبيعى ودور الكتب والآثار . وكانت لى جلسات طويلة فى

ركن قهوة صغيرة منفردة آوى إليها وحيداً أفكر ست أو سبع ساعات متتالية فى مسائل عويصة من مسائل الفلسفة المطلقة ، أو قضايا الفكر ، أو مشاكل العالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولكم هدمت فى رأسى مدنيات وأقمت بدلها حضارات خيالية ذات نظم مثالية على نحو ما فعل أفلاطون وتوماس مور . ولكم ألحدت ثم آمنت وضللت ثم اهتديت . ولكم كتبت ومزقت . ولكم جهدت فى سبيل تلك اللذة العليا التى حسبتها غاية الإنسان التى ليست بعدها غاية . ولقد همت بالنور وعشت حول النور حتى أحسست أن جسمى يرق وأن لنفسى أجنحة كأجنحة الفراش . ولقد صرت كالهواء أو كالملائكة أسهر الليل سابحاً فى أجواء الفكر فوق كتاب مفتوح تحت مصباح مضىء ، حتى إذا جاء الصباح رقدت وهربت من الناس والضجيج . إلى أن نبهتنى آخر الأمر خادم عجوز قائلة :

— حياتك هذه ليست حياة . انظر إلى وجهك فى المرآة !

فنظرت ملياً فى مرآة خزانة الملابس فارتعت . ما كل هذه التجاعيد حول عينى . وما هذا الظهر الذى تقوس وانحنى .

وما هذا النحول وهذا الشحوب .. أتراني قد نسيت جسمي طول هذه الأعوام ؟ أم تراه الشيطان قد تقاضى الثمن دون أن أعلم ؟ وهالني منظرى وأنا أضع إصبعى على تلك الخطوط المخيفة على صفحة وجهى كأنها صك بزوال زهرة الحياة إلى الأبد ، فما تمالكت أن صحت :

— الشباب . الشباب . لقد أخذ الشباب !

إذا جن الليل ، ورقد الناس ، وسكنت الكائنات ، قام هو فى خفة الطائر ، ورقة النسيم ، ينسج قصصه العجيبة بأنامل لا يعرف وصفها إنسان . ذلك هو الحلم . فنان حاذق يأتى بالمعجزات فى رؤوس النائمين .

وهو ككل فنان محترف كتب عليه الإنتاج فى كل ليلة ، لايبرأ من الإسفاف ، ولا يستطيع أن يجيد فى كل حين . فهو لا يخرج دائما فى كل الرؤوس آيات متناسقة البناء شيقة الحوادث مستقيمة التفكير . إنه هو أيضاً ضحية « الروتين » الذى يقتل الفنانين . لكنه إذا أبدع أوحى . وإنى لأعرف كتابا يستلهمون الحلم . وإنى لأذكر خبر كاتب روسى أو مجرى كان يأكل قبل النوم حتى الكظة طالباً التخمة راغباً فى الكابوس يصور له من الحوادث المخيفة ما ينفعه فى استنباط قصة . أما أنا فأبغض الكابوس

ولا أريده ، ولو ألهمنى خير القصص فإن لحظة أقضيها فى جوه الخانق لأشق على نفسى من الجحيم . غير أنى لا أنسى رؤيا منسجمة الفكرة متصلة الخيوط ، رأيتها ذات ليلة ، فاستطاعت أن تشغل بالى فى الصباح ، وأن تقبضنى على القلم ، وأن تستكتبنى هذه السطور :

رأيت أنى معها فى حجرة واحدة . أما هى فغادة حسناء.ذلك النوع من الحسن الذى أحبه . ولست أدرى كيف عرف الحلم ذوقى فاختار لى مثل هذه المرأة ! جلسنا معاً وهى فى ثوب أخضر خفيف . وكأن بيننا حباً قديماً ، والحلم خير من يلعب بالزمن كما يلعب المصور بالألوان . فلم نكن نعيش ، أنا وهى ، إلا فى ثوان .. لكنها كالأعوام . لها ماض وذكريات . يحيط بنا إطار مصنوع من جوهر لا أدرى ما هو ، لعله ما يسمونه « السعادة » . وفجأة ، طرق علينا الباب . وظهرت خادم تعلن فى صوت خافت أن زوج الفاتنة قادم . هرج واضطراب وقعا فى الحجرة . فقفزت أنا من مكانى أبحث عن حذائى . ونهضت هى فى سرعة الريم إلى المرآة تصلح من شأنها . وتملكنى الوهم وحرج الموقف فعجزت عن

إدخال قدمى فى الحذاء ، ورأت هى ما أنا فيه . فصاحت بى :

ــ عجل بالخروج !

ــ لا أحب إلى نفسى الآن من الخروج سالما. لكن الحذاء ..

ــ ألا تريد أن تنصرف ؟

ــ حافيا ؟ هذا لا يجوز . وهل أنت ترضين لى الخروج على هذه الحال ؟

فلم تجب وجذبتنى من ثيابى ، ودفعتنى إلى الباب ، فخرجت أحمل حذائى فى يدى وإذا أنا ــ وجها لوجه ــ أمام رجل وسيم الطلعة أنيق الهيئة حيانى باسما فارتجفت ونظرت إلى عينيه ، فلم أرفيهما غضبا ولا سخرية . وأشار لى فى كياسة أن أضع الحذاء فى قدمى على مهل . فقلت متلعثم اللسان :

ــ أشكرك يا سيدى على هذا اللطف ...

وحاولت أن أفعل ما أراد فلم أستطع ، فلقدحرن الحذاء مرة أخرى ، وأبى أن يلين لتوسلاتى الحارة ولعرقى المتصبب فى هذا الظرف المؤلم . وخرجت « الحسناء » زاهية كالقمر ، فما إن رأت الرجل ، والرجل رآها . حتى وقع أحدهما فى أحضان

الآخر ، وقبلات ..

وشعرت فى أعماق نفسى وقتئذ أنى لاأصلح للبس الحذاء ولا للانصراف ، ولا لصنع شىء فى هذا الوجود ! فجلست القرفصاء أنظر وأسمع ولا أدرى لى مصيراً . وفرغا من القبل ولكنهما ظلا متعانقين وهى تقول له :

ــ أهذا شغفك بى ؟! مضى عام دون أن أسمع عنك خبراً ! ..

ــ ألا تعرفين ما حدث ؟ لقد أمسينا من أصحاب الملايين .

ــ ملايين ؟! كيف ؟ كيف ؟ أخبرنى ! ..

ــ أنا الآن « مليونير » .

ــ أتقول حقا ؟ وافرحتاه ! . تعال فقص علىَّ كل ما حدث منذ أن تركتنى وسافرت إلى تلك البلاد النائية !

وتناولت يده ، تقوده إلى الحجرة ، فعثرت قدمها الصغيرة بشخصى الحقير ، ولم يزل موضوعا إلى جانب الحذاء . لكن أى حذاء . إنى فيلسوف . كما إن هذا الرجل المحترم ، زوجا كان أو غير زوج ، فيلسوف هو أيضا فيما يبدو لى . ذلك أنى لم أكد أسمع أن الرجل صاحب ملايين حتى أدركت أن لا محل الساعة للبكاء على حب ! ورنت فى أذنى تلك اللحظة كلمة هائلة ضاحكة : « الذهب » ! كما

رنت ولا ريب فى قلب الحسناء فنسيت كل شىء . وصرت فى نظرها ، أنا وحذائى على عتبة الباب ، كائنين متساويين ! نسيت كل شىء وشيكا لأن « الذهب » كلمة جليلة عظيمة . لها صوت مدو مهيب كصوت حوافر جياد مطهمة على أرض من الرخام الأصفر .. كلمة كالدخان السحرى ترى خلالها القصور والعروش والحلى والتيجان ! ونسيت أنا أيضا كل شىء كان ويكون . حتى ما أنا فيه من ذل وتعس . كما نسيت أن أنهض من الأرض وأن أرفع يدى عن حذائى الذى لم يوضع فى قدمى ولن يوضع . ومرا بى هذان السعيدان .. فى حرص واحتياط حتى لا يعثرا بى فى طريقهما إلى الحجرة . فقلت فى أدب وأخلاص :

— دوسا ، لا مانع عندى مطلقا من أن تدوسا !

واستحوذت علىّ مشاعر غريبة . لست أعلم لها إسما بين مشاعر الناس . فلم ألبث أن تقدمت نحو الرجل وقلت له فى احترام عميق :

— لقد أشرق النور فى هذا البيت مذ حللتم به . وإن سيدتى كانت شديدة القلق كثيرة الهم لغيبتكم الطويلة حتى أسعدها الله أخيراً بأوبتكم الظافرة الميمونة .

فالتفت إلى الرجل فى استغراب خفيف . ولكن الدهشة كلها كانت دهشة المرأة . و لم أمهلها حتى تفيق . فوجهت إليها من فورى الخطاب :

ـــ أما كنت يا سيدتى تذكرينه دائما فى شوق ولوعة؟ ها هو ذا قد عاد ولا ينقصكما الآن إلا خلوة تتبادلان فيها رقيق العتاب ، حتى تصفو القلوب ويتصل بينكما ما انقطع بطول الفراق .

وانتظرت أن أحظى منهما بجواب . فلم ألق إلا سكوتا بارداً ونظرات فاترة . وتحركا آخر الأمر نحو الحجرة ودخلاها وأغلقا عليهما من دونى الباب . وأنا واقف جامد . وكأنى لا أعيش . وثبت إلى نفسى قليلا . فإذا عرق يسيل من كل بدنى . لماذا صنعت هذا وقلت هذا ؟ وهل سألنى واحد منهما أن أكون لهما رسول سلام ؟ وهل هما فى حاجة إلى ، حتى يدخل قلبيهما الصفاء ؟ ومن قال إنهما كانا غاضبين ؟ إنهما الآن مثل كل متحابين مؤتلفين لا يطلبان إلى أحد أن يمشى بينهما بخير أو بشر . ينبغى أن أفهم الآن أنى قد طردت من الفردوس حافى القدمين ..

وانتهى الحلم من تأليف قصته ، وسكت عن الكلام المباح وقد

أدركه الصباح . واستيقظت فوجدت أنى حقيقة عارى الأقدام وقد سقط اللحاف عنى . ولكن ستار النسيان لم يسدل فى رأسى على الرواية . فقد تركت فى نفسى أثراً عميقا . وطفقت أقول : « حتى الحلم ، ذلك الفنان البارع ، لا يملك لمثلى من ذلك الجوهر الطيار الذى يقال له : « السعادة » غير مقدار قليل لا يشفى الغليل » ! ..

« راديوم » السعادة

استعرضت فى رأسى البارحة شريطا ذا ألوان من ذكريات الماضى . أما الألوان فكانت خضرة داكنة لأشجار الزيزفون والكستناء المحيطة بذلك الوكر الجميل المسمى « أورياج » ، ألقته يد الطبيعة فى بطن واد سحيق من وديان « الألب » ، ليذكر البشر بالفردوس المفقود .

ولقد هبطت هذه الجنة فى شهر أغسطس عام ١٩٣٨ أحمل حقيبة واحدة ، فيها « بذلة » واحدة وكتاب واحد : هو « العقد الفريد » لابن عبد ربه بكامل أجزائه .

ولم تكن الحقيبة تتسع لغير هذا الثوب وهذا الكتاب ، ولم يكن شيء أبغض إلى نفسى فى الأسفار من كثرة الحقائب ، فطال ترددى وأنا أتجهز للسفر : أأحمل « بذلة » أخرى وأترك « ابن عبد ربه » ؟ واستقر عزمى آخر الأمر على إيثار « الزميل » أعبر به

البحار والجبال ، وأصطحبه إلى بلاد لم تطأها قدمه ، وأريه مناظر لم ترها عينه ؛ فللأديب على الأديب حق ، وليس من الوفاء حرمان ابن عبد ربه مثل هذه النزهة . فنبذت الثياب وأخذت الأديب ، وانطلقنا ...

* * *

بلغنا جنة « أورياج » ، ونزلنا فندق « الروض » وهو بناء جميل أقيم على بساط من العشب ، قد اضطجعت عليه حور من الفرنسيات يتحدثن في ظل الأغصان المدلاة إلى ولدان وفتيان ، أو يصغين إلى أنغام موسيقى يحملها النسيم ، تعزفها فرقة فى شبه ميدان وسط المصيف .

وكانت مائدة طعامى بالفندق فى طرف ناء ، فلقد احتل من نزل قبلى الأفاريز المشرفة على المناظر الرائعة ، ولكننى لم أحرم مع ذلك منظر مائدة إلى جوارى جلس إليها فتى وفتاة ، قيل لى إنهما تزوجا حديثا .

لقد كانا زهرتين ناضرتين فى باقة « فندق الروض » . وكنت أنا دائما وحدى ، ليس معى من رفيق غير « ابن عبد ربه » وقد

وضعته أمامى فوق المائدة إلى جانب زجاجة « الفيشى » .

نعم، لم يكن يخطر لى على بال أن هذا الأديب يلازمنى على هذا النحو فى كل مكان ، لقد اعتدت ملازمته كما اعتدت من قبل ملازمة عصاى .

فأنا لا أخرج من الفندق فى الصباح ، ولا أعود فى المساء ، ولا أذهب إلى قهوة ولا إلى ملهى إلا ومعى « ابن عبد ربه » . حقيقة أن فى جوف هذا الأديب كثيرا من طلى الحديث ، وهو خير أنيس وجليس فى مثل وحدتى وعزلتى .

ولكن .. أما كتب لى أن أظفر بجليس أجمل منه سحنة وأعذب منه صوتا ؟ لقد كنت أتأمل من طرف خفى هذين الزوجين السعيدين ، فيخيل إلى أنى أرى منهما أشياء . إنهما لا يتحادثان كثيراً ، وكل منهما يأكل وهو مطرق ، ولقد لحظت أن الزوج ما يكاد يفرغ من أمر طعامه حتى يترك امرأته ويختفى اختفاءة لا يظهر بعدها إلا على مائدة الوجبة التالية . وكان الذى يشغل فكرى وقتئذ البحث عن « قهوة » هادئة أجعلها مقراً لى وللأديب الذى معى وللورق الذى فى جيبى . فأنا لا مطمع لى فى رياضة

شاقة كتسلق الجبال ، ولا رياضة هادئة كلعب « التنيس » . وليس فى الناحية جدول قريب أصطاد منه السمك ، وهى رياضتى الوحيدة التى أحذقها ... (أستغفر الله على كلمة « أحذقها » وهو الشاهد العدل على مبلغ حذقى إياها !) . وعثرت آخر الأمر عند أقدام أشجار باسقة قد تهدلت أغصانها كجدائل الشعر الكثيف ، على « قهوة » صغيرة فى شبه كوخ من خشب نثرت حوله المقاعد والموائد . فقلت فى نفسى : ها هنا مكانى . فاتخذت مقعداً فوق العشب ، والتفت أطلب الساقى يحضر إلى فنجانا من الشاى . فإذا أنا أمام ساقية كالبدر . وإذا أخرى على باب الكوخ كالشمس . وإذا ثالثة وهى الصغرى تخطر فى خفة الغزال بين الموائد ، ناثرة قطرات اللطف والظرف ، فى صورة ابتسامات ساحرات ، ذات اليمين وذات الشمال . إذا قلت إنى فى حياتى لم أر أظرف من هذه الفتاة ما كذبت ، وإذا أقسمت أن هذه الفتاة ما خلقت إلا لتتلقى نظرات الإعجاب من الناس لما حنثت . الدليل تلك الأعين التى ترمقها من كل جانب ، وتلك الأفواه التى تناديها من كل مائدة . كان اسمها « فرانسواز » .

وفرغت من دهشى قليلا فأجلست ابن عبد ربه على مقعد خال بجوارى ، وأردت أن أشير إلى الفتاة لأطلب فنجان الشاى ، وإذا غيرى يسبقنى :

ـــ فرانسواز ! كأسا من البيرة .

فانتظرت لحظة . ثم هممت بندائها . وإذا صوت آخر :

ـــ فرانسواز ! كوباً من شراب البرتقال !

فسكت مرغماً . ثم عاودنى الأمل فرفعت رأسى إليها وإذا صيحة :

ـــ فرانسواز ! فرانسواز !

فالتفت فإذا ذلك الزوج الشاب الذى يهجر زوجته فى الفندق بعد كل طعام ، قد جاء فى شبه ركض وجلس إلى مائدة قرب مكان الفتاة، وطفق يحدثها حديثا ازدحم به فمه، وهى تضحك أحياناً ضحكاً رقيقاً يتمايل له غصنها الرشيق ، وأشرقت السعادة فى وجه الشاب . وإذا صفاؤه قد عكره صوت فتيان آتين بملابس « التنيس » يصيحون قبل أن يجلسوا !

ـــ فرانسواز ! فرانسواز !

فالتفتت إليهم الفتاة وابتسمت . ثم استأذنت محدثها وانطلقت إليهم . فاستقبلوها فى شبه هتاف وظلوا لحظة يتضاحكون . هؤلاء فيما يخيل إلىّ فتيان من طلبة الجامعات . فإن هذرهم وضجيجهم وما يبدو من سنهم ينم عن ذلك . وكان أكبرهم سناً فتى معتدل القامة جميل المنظر فى سروال « التنيس » الأبيض وقميصه الخفيف وسواعده العارية . وكان هو أكثرهم اهتماما بأمر الفتاة . طفقت أنظر إلى كل هذا ، وذكرت أن ذقنى لم يحلق منذ ثلاثة أيام ، وتلك أيضا عادة من عاداتى . فأنا لا أفكر فى ذقنى وهندامى إلا مصادفة.

ثم ذكرت قلنسوتى « البيريه » التى تهبط إلى أذنى كأنها « لبدة » وعصاى الغليظة وكتابى الضخم بغلافه السميك القديم . كأنه سفر من أسفار السحر والتنجيم . فأدركت أن منظرى لن يؤهلنى إلى طلب فنجان الشاى فى هذه القهوة ! أأنهض إلى غيرها ؟ هذا مستحيل . إن هذا الجو الشعرى الجميل الذى يكتنف هذه القهوة هو فى ذاته متعة دونها كل متعة . وطال جلوسى . وطالت مشاهدتى ، ومر الوقت سريعاً دون أن أشعر به ، وقام أناس ، وقعد أناس ، وأنا فى مكانى لا يشعر بى أحد . ولا أطلب شيئاً إلى

أحد . لقد خجلت أن أسترعى التفات الساقيات الثلاث ما دامت أنظارهن لا تريد أن تقع على مثلى ! وجعلت أسائل نفسى فى نبرة مريرة ، وروح كسيرة :

— ماذا يمنعنى من أن أعيش كما يعيش هؤلاء الأحياء ؟ ما أحسبنى قد بلغت سن اليأس . وأنا الآن بالمصيف فى شهر راحة.

ما يمنعنى من حلق ذقنى كل صباح وترتيب شعرى وتعريضه للشمس والهواء . وارتداء مثل هذا السروال الأبيض الجميل والقميص ذى السواعد العارية ؟؟ . لم أتلق جواباً عن سؤالى . ولكن نظرة منى وقعت على صديقى « ابن عبد ربه » الموضوع إلى جانبى أدركت معها فى الحال من المسئول عن كل ما صرت إليه !

نعم ، واأسفاه ، نعم . ووددت لو أنقض عليه فأقطعه تقطيعاً وأمزقه تمزيقاً . ولكنى اكتفيت بحمله بين يدى فى سخط شديد . كمن يحمل كتابه الذى سطرت فيه لعنته وقدره المحتوم .

وعند ذلك حانت من الفتاة التفاتة إلى . وفطنت إلى وجودى ، فأسرعت إلى تقول فى ابتسام واعتذار :

— نسيتك يا سيدى .

فأجبتها فى ابتسام وتسامح :

ـــ لا بأس . إنك على كل حال لم تنسى شيئاً ذا خطر .

وأحضرت إلى ما طلبت . ولم نتبادل كلاما أكثر من ذلك . ولكنى سعدت به . فنحن معشر الأدباء المساكين نرضى بالقليل. ويكفى لإسعادنا وإلهامنا أتفه الأشياء .

* * *

كثر اختلافى إلى هذه القهوة . وكنت فى كل مرة أرى عين الأشخاص يلعبون عين الأدوار .

فالطالب فى لباس « التنيس » ينادى « فرانسواز » فى كل لحظة ، ولا يشبع من الحديث معها ، ولا يضن بطلب مشروب بعد مشروب . استبقاء للساقية الجميلة إلى جواره . ولقد سمعته ذات مرة وقد انفلتت من فمه هذه الكلمة :

ـــ أوه ! لقد خربت وأفلست . وأضعت كل نقودى فى هذه القهوة !

ويلبث فى سروره وضحكه وهذره ساعة ثم يمضى إلى ملعبه ، مطوحا « بمضربه » فى الهواء فرحاً سعيداً .

ويأتى الزوج الشاب ، وقد ترك زوجته فى الفندق وحيدة متذمرة تعسة مرتابة ، فينادى : « فرانسواز » ويطلب السعادة هو أيضاً ساعة فى عينيها الباسمتين غير مبال بخطر فقد زوجته فى هذا السبيل .

تأملت كل هذا لحظة . ثم قلت لنفسى :

ـــ هذان شابان جميلان . ومع ذلك فقد أضاعا شيئا فى سبيل لحظة هناء إلى جوار هذه الفتاة . ماذا أعطى أنا من أجل لحظة تحادثنى فيها هذه الفتاة ؟ نعم ، هنا كل سعادتى ومطمعى : أن أسترعى اهتمامها لحظة وأن تقبل على تحادثنى حديث المشغوف بمحادثتى !

لكن .. هل هذا ممكن الحدوث وقد ابتليت بصحبة هذا الزميل المنحوس ؟ وانكببت على ورقى الذى كنت قد نشرته ، وفتحت صدر ابن عبد ربه أمامى ووضعت فيه همى . وكأن القدر شاء مداعبتى أو أراد متعمداً أن يكشف لى قليلا عن جوهر نفسى المحجوب عن عينى ، فأحدث المعجزة . وإذا الفتاة تدنو منى مبتسمة متعجبة وتقف لحظة ترمق سطور « ابن عبد ربه » وهى

صامتة ، وفطنت إلى قربها ، فاضطرب قلبى ورفعت رأسى .

فابتدرتنى قائلة فى همس :

ــ أهذه كتابة صينية ؟!

فضحكت وقلت :

ــ بل عربية .

ــ ما أعجبها ! أتستطيع أن تقرأ هذا « النبش » فى سهولة ؟

ــ بالطبع . وأكتبه أيضا .

ــ وتكتبه ؟

ــ نعم . انظرى ..

ومضيت أكتب أمامها ، وهى دهشة مسرورة . وجعلت تستفسرنى كثيراً من معانى الكتاب . وقاطعها النداء من كل جانب ، فكانت تذهب لتلبى ثم تعود إلى تحادثنى مغتبطة ، وقد تطرق الحديث إلى مواضيع كثيرة . وقد أدركت من حديثى أن الكتابة صناعتى ، فأقبلت تعرض علىّ ألوانا من حياتها تصلح قصصا . وبدا على السرور أول الأمر . وبدأت أحترم ابن عبد ربه . فبفضله تم كل هذا ، ولكن ما كدت أتردد على القهوة مرة أخرى وتقبل

علىّ الفتاة تحادثنى ذلك الحديث الطويل فى مختلف الشئون ، حتى أحسست أن كل شىء قد تغير فى نفسى ؛ فالأشجار ليست الأشجار ، والجنة ليست الجنة ، ووجهها لم يعدفيه السحر القديم ، والجو الشعرى قد ارتفع عن القهوة . ذهب السحر وتهتكت أستار الأسرار . وما أنا والفتاة الآن إلا صديقان ثرثاران !

وشعرت عندئذ أن لا شىء عاد يربطنى بالقهوة ووددت لو أتركها إلى غيرها حتى أتفرغ للعمل ، وأتم الفصول الأولى التى بدأتها مدفوعا بتلك القوة الهائلة من لحظة سعادة خفيفة مرت . عند ذاك فهمت أن السعادة التى تلزم لنا نحن الفنانين ؛ لنقوم بالأعمال الكبار ينبغى أن تكون بمقدار !! مقدار صغير ثمين مثل « الراديوم » فإذا انغمرنا فى حوض من هذه المادة السحرية فإنها تنقلب فى نظرنا ماء قراحا لا فعل له ولا أثر .

وتأبطت « ابن عبد ربه » أخيراً ، وانصرفت به وقد ... انتصر !

فى حانة الحياة

ساقون ثلاثة فى « حانة الدنيا » إذا ناديتهم أقبلوا بالكؤوس وهم يرقصون ، وفى عيونهم وشفاههم بسمات خفية ساخرة لا ترتاح لها نفس ... أول « جرسون » من هؤلاء طفل ؛ وهو أبداً طفل وعمره خمس سنين ... ويدعونه « الحب » ؛ والثانى رجل وهو أبداً رجل وعمره أبداً أربعون سنة ... ويسمونه « الشيطان » ، وثالثهم لا عمر له ويدعى « الموت » والموت هو « البارمان » لهذا الحان . وهو الوحيد من بين الثلاثة الذى لم أفكر يوماً فى الدنو منه ؛ وقد زهدت من أجله فى الشرب على « البار » ! .. منظره لا يعجبنى وحسبى منه وقفته الوقحة و« فوطته » القذرة التى بها ألف خرق وضحكته التى كسعال المسلولين وأسنانه الصفراء العفنة من تأثير إدمانه على التدخين والمغيبات . إنه « يقرفنى » ومحال أن أتناول شيئاً من يده طوعاً

واختياراً ...

أما « الشيطان » فيعجبنى بطلاقته وزلفاه وذكائه . ولـولا علمى أنه محكوم عليه غيابيا ... وأنه من أرباب السوابق فى جرائم النصب والاحتيال ... لركنا إليه ... أنا وكافة « الزبائن » ...

أما « الحب » فالويل من هذا الطفل الجاهل الجميل ! إنـه يأسرنى بلطفه ورقته .. أجل إنه الساقى الوحيد الذى أتناول من يده كل شىء ... وبلا تحفظ . غير مبال إن كان ما يعطينى سماً أو « شمبانيا » ...

ناديته فى الربيع الماضى فأقبل يحمل إلى الكأس ... ووقف ينظر إلى برقة ساحرة ويبتسم إلى بابتسامة خلابة تحوى أشياء لم أكن أدركها فى ذلك الحين :

— ماذا تريد ! ... (البقشيش) ؟ ...

— كلا .. أريد ألا تطلب إلى شيئاً بعد ذلك ... إياك أن تطلب قليلا من الثلج ... إن طلبت قليلا من الثلج فلن آتى لك بطلبك ...

ــ اطمئن ... لن أطلب إليك شيئاً .. أبداً ... لا (ثلج) ولا (صودا) ...

وأقبلت على الكأس ... لكنه استوقفني أيضا . وغافلني وحمل الكأس وجرى قليلا . ثم ضحك ضحكة صبيانية وقال فى نبرة ملائكية :

ــ سأعذبك ...

غير أنى لم أسمع و لم أر و لم أدرك إلا شيئا واحداً : إنه حمل الكأس وابتعد . فارتجفت وصحت مدفوعا بالرغبة والظمأ ...

ــ هات الكأس يا جرسون ...

فاقترب به من شفتى ... وقال بنفس الصوت الموسيقى العذب :

ــ سأعذبك !

ــ هات الكأس يا جرسون !!

ــ سوف تلعننى ...

ــ أنا ؟؟!

ــ سوف تمقتنى ...

— أنا عبدك ...

— سأعذبك ...

— هات الكأس ...

— خذ !

* * *

ومضى عام :

— يا جرسون . يا جرسون !

— ماذا تريد ؟

— الثلج .. فى الحال ... الثلج !

— لقد أنذرتك .

— أرجو منك .. قطعة واحدة من الثلج !

— قد أنذرتك .

— قطعة ... ولك ما تريد ..

— هيهات . هيهات !

— لا تبتعد ؟ ... لا تهزأ بى . لن تتركنى قبل إحضار الثلج .

— هيهات . هيهات !

ـــ لقد خدعتنى ... ما كنت أظن طفلا بريئا جميلا يجرؤ على هذه الجريمة : يقدم إلى بدل ماء الكروم ماء النار !

ـــ الكروم والنار ... يا لك من غر ساذج ! ... الخمر والنار هما عنصرا حياتى . وهما لون خدودى ولون شرابى !

ـــ قطعة من الثلج ... ولك ما شئت !

ـــ محال ... !

ـــ رحماك ! .

ـــ لو كنت عاقلا لأدركت أن الثلج ليس فى عهدتى .

ـــ لماذا ؟؟ ... لماذا ؟؟ ...

ـــ سل صاحب الحان ...

ـــ أنقذنى ... لعنة الله عليك .

ـــ الثلج لا يمكن أن يكون فى عهدتى .

ـــ آه يا ملعون !! وما العمل ؟

ـــ عليك بجرسون آخر ؟؟

ـــ جرسون آخر ... من ؟؟ من ؟؟

فجرى « الحب » إلى « الشيطان » وأسر إليه كلاماً ثم أشار

بيده إلىّ أنا « الزبون » المسكين ، وإذا « الشيطان » قد أقبل نحوى :

ــ أنا .. هو ذا ... ما طلبك ؟ ... أنا القدير على تنفيذ رغبتك ... مرنى أطع أيها السيد النبيل !

ــ الشيطان !!

ــ خادمك . !

ــ كلا مستحيل ! أنت من أرباب السوابق .

ــ مظلوم ! ... وربك لم يثبت ضدى شىء ... لا تصدق وشايات الناس . وربك إنى متهم زوراً وبهتاناً .

ــ ما الدليل على براءتك ؟

ــ هاك ... « رخصتى » ... بيضاء كقلب الجنين !!

ــ أليست ... مزورة ... ؟؟؟ على كل حال أنا فى حاجة إليك الآن ! إنى فى حاجة شديدة إليك .. أسامع ؟

ــ محسوبك ...

ــ ... الحب ... هزأ بى ... انتقم لى ...

ــ آسف ! الحب زميلى وليس لى عليه سلطان .

ــ ما العمل إذن ؟ ...

ــ دع الانتقام ... وفكر فى الدواء ...

ــ الدواء ... الثلج ... قطعة من الثلج ... إذن !!

ــ الثلج ليس بالدواء ... الدواء هو ...

ــ هو !! هو ماذا ؟ تكلم ؟

ــ هو الداء ... وداوها بالتى كانت هى الداء ...

ــ ماذا تعنى ... ؟

ــ اطلب من « الحب » كأساً أخرى ... !

ــ قل سماً آخر ، ناراً أخرى سائلة فى كأس صافية ! ... لا ، أيها النصاب لقد خدعت مرة ...

ــ ومن أدراك ؟ . ربما فى هذه المرة . ؟

ــ اخرس . يا منافق ... دوائى الثلج ... وأنا أدرى الناس بدوائى ... أعطنى قطعة من الثلج ... أسرع بالثلج ...

ــ محال ..

ــ أنت أيضاً ..

ــ الثلج ليس فى عهدتى ..

ـــ كيف ذلك ... كيف ذلك ؟ ..

ـــ سل صاحب الحان ! ..

ـــ وما العمل ؟ ... ارحمني ! ...

ـــ أدلك على «جرسون» آخر ... وأوصيه بك خيراً ... فلطالما أوصيته عند اللزوم بزبائننا الكرام ...

وجرى « الشيطان » مهرولا إلى « الموت » وأسر إليه كلاماً ، ثم أشار إلىّ أنا « الزبون » فتقدم « الموت » فى بطء وهو يبتسم ساخراً :

ـــ من ذا الذى طلبنى . ؟

ـــ الموت !! ... آه ... لا ، لا ... لا ... أبداً ...

ـــ عجباً لكم ... يا معشر الزبائن ... كلكم متشابهون ... تطلبون ثم تنكرون ! ألم تطلبنى أيها « الزبون » ؟؟ ها ... حا ... حا ... حا ...

ـــ لا تسعل فى وجهى ... اغرب عنى ...

ـــ عجبا لك ! ... حا ... حا ... سعالى يخيفك ... أتحسبنى مسلولا ... لا ... أخطأت ! هذا من الأفيون نعم .. ها..حـا...

حا ... ألا تحب، تعاطى الأفيون ؟

ــ بالله ... ابتعد ... أسنانك الصفراء ... ابتعد ... ابتعد ...

ــ والثلج .. ألا تطلب الثلج ... هو فى عهدتى ألا تريد ؟؟ ..

ــ فى عهدتك ؟؟ ...

ــ فى عهدتى دائما . ... من يوم (نزولى الخدمة) ، بهذه الحانة ...

ــ كلا لا تقربنى ... قلت لك ... لا تقربنى ... أستودعك الله. !

ــ إلى أين !؟ حا ..

ــ ابتعد عنى ... أنت لا تطاق ... رائحتك كريهة ...

ــ والثلج ... حا ... حا ... ألا تطلب ثلجا ... أبيض ... تعال لا تخف ... تعال .. ثلجا أبيض مثل الكفن !!

ــ النجدة ... النجدة ... يا جرسون « حب » ، يا جرسون « شيطان » ... يا صاحب الحان ... أنقذونى من هذا الجرسون الفظيع ... كل شيء يطاق إلا هذا الجرسون البارد الفظيع ...

حقوق على نفسي

فى ذات صباح دخل على حارس بابى وقدم إلى خطابا قال إن صاحبه ينتظر الإذن « بالمثول » . وفضضت الغلاف وقرأت الخطاب فإذا هو معجب متحمس قد ذهب الإعجاب برأسه فجاء من بلدته وتحمل نفقات السفر كى يظفر بخمس دقائق يرى فيها ذلك التمثال من الحكمة فوق عرش من الذهب . أو ذلك المخلوق العجيب الذى تتساقط من فمه درر الفن والأدب ، فتملأ أحواضا حوله يسبح فيها بط وأوز من الفضة والماس وتنبت فيها أزهار من النور والبلور . إلى آخر هذا الخيال الذى لمحت أثره بين السطور . وكان عندى وقتئذ أديب معروف اطلع على الخطاب وقال : هذا يذكرنى بأحد الموسيقيين فى القرن الماضى . مشى من بلده على قدميه ليرى « ريتشارد فاجنر » فلما بلغ حيث يقيم اكتفى بمشاهدة خيال الأستاذ قائما خلف زجاج نافذته ، وقفل إلى بلده

غانما باسما .

فقلت لصديقى :

ـــ لا محل هنا للمقارنة . فأنا لست « ريتشارد فـاجنر » وصاحب الخطاب لن يقنع منى فيما يظهر بشبح مار خلف نافذة.

لا تنس أنه دفع نفقات السفر ليرى مناظر قد صورها خياله منذ أيام وشهور ، وليعيشْ تلك الدقائق الخمس فى جو عبق بأحلام وأوهام ساورته فى ليال طوال وهو يقرأ ذلك « الهراء » الذى ملأنا به كتبا ذات ورق صقيل وطبع أنيق . أى خيبة أمل ستصدم نفس هذا المسكين إذ يجتاز الساعة عتبة هذا الباب .

وترددت قليلا. ولحظ صاحبى ترددى فقال :

ـــ إيذن له على كل حال .

فأذنت . وليس فى مقدورى أن أفعل غير ذلك . فإن رفض المقابلة فى مثل هذه الحال قسوة وسوء أدب . ودخل الزائر . فإذا شاب يتقدم فى حياء واضطراب . سلم فى احترام ، وجلس حيث أشرت إليه . ولبث صامتا مطرقا ينتظر منى أن أبدأ الحديث . و لم أجد أنا ما أقول له . وطال صمتنا . ورأى صديقى الأديب أن

الموقف قد فتر وبرد إلى حد أخجل الشاب فوق خجله . فافتتح الكلام فى لباقة قائلا للشاب :

ـــ أنت قرأت للأستاذ طبعا ..

فاندفع الشاب يقول فى قوة وتحمس :

ـــ كل شيء . كل شيء من « أهل الكهف » الخالدة إلى آخر مقال ظهر فى الصحف للأستاذ .

فلم أنظر إلى الزائر والتفت إلى صديقى الأديب وقلت :

ـــ ألم تدركها الوفاة بعد « أهل الكهف الخالدة » ؟ ... إن هذه « الخالدة » جديرة أن تموت « حرقا » كما تموت الساحرات الكاذبات .

فاحمر وجه الشاب وأراد أن يقول شيئا . لكنى مضيت فى كلامى :

ـــ إنى أرجو ممن يسبغ مثل هذه الصفات على مثل هذه القصة أن يقرأها بعد عشرة أعوام . فإن استطاعت أن تحتفظ بسحرها عشرة أعوام فقط حقَّ لك أن تعجب وأن تغتبط .

فلم يطق الشاب صبراً وصاح بى :

ـــ لا تقل ذلك ... لا تقل ذلك أنت ولا شك لم تقرأ ..

ولم يتم . فقد قاطعه صاحبى الأديب بقهقهة عالية وهو ينظر إلى :

ـــ أسمعت ؟ إنك لم تقرأها ... وإنك لتحكم على شيء ليس لك به علم ..

وخجل الفتى الزائر قليلا وتمتم باعتذار خافت وقال :

ـــ إنى قرأتها كثيراً . لا أذكر كم من المرات . فإذا لم تكن هذه القصة خالدة فما هى القصة الخالدة ؟

ـــ إنها « خالدة » إذا هبطنا بسعر « الخلــود » إلى خمسة أعوام !

فاحتج الشاب وحرك يده على نحو عنيف فلم ألتفت إليـه واتجهت شطر صديقى الأديب وقلت :

ـــ إنى لن أنسى يوم شاهدت هذه « القصة » تمثل للمرة الأولى . لقد خرجت من إطارها الساحر . هذا الطبع الأنيق والورق الفاخر . فإذا هى شيء هزيل . لا يكاد يقف على قدميه . وإذا سحرها الوهمى الكاذب قد طار عنها كما يطير الريش الملون عن

الطاووس الجميل فلا يبقى منه غير شبه جيفة من اللحم الأزرق والعصب الضئيل . هذه القصة التى لم تثبت « للتمثيل » أتستطيع أن تثبت « للزمن » ؟ .

فتململ الشاب ونظر إلى صاحبى الأديب نظرة المستنجد وقال له :

ـــ إنى لم آت اليوم لأسمع هذا الكلام من الأستاذ .

فأجابه صاحبى باسماً :

ـــ إن الأستاذ أدرى بعمله منا .

فقاطعه الفتى قائلا :

ـــ لا ... لا ... أبداً .

فنظر إليه صديقى دهشاً :

ـــ ماذا تعنى ؟

فصاح الشاب فى حماسة :

ـــ إن أعمال الأستاذ خالدة جميعاً .

فلم أستطع كتمان ضحكى وقلت من فورى :

ـــ أقسم أن الأستاذ الذى تتحدثون عنه لم يكتب سطراً

خالداً .

فنهض الشاب على قدميه منفعلا وقال بصوت متهدج :

ـــ إنى لا أسمح لك .. إنى لا أسمح ..

فأسرع صاحبى الأديب وهمس فى أذنى :

ـــ الزم الصمت . إنى ألمح الشر فى عينيه . وليس بمستبعد أن يهجم عليك ويشبعك ضربا .

فابتسمت وقلت للشاب فى هدوء ورفق :

ـــ سنتفق على كل حال ذات يوم . وربما فى يوم قريب . وسترى بعينيك أنى أنا الذى كنت على حق .

فهدأ الفتى قليلا ثم نظر إلىّ وقال فى نبرة الأسف :

ـــ لماذا تريد أن تهدم عملك ؟

ـــ لأنه لا يساوى الآن شيئاً . لقد قام بمهمته وانتهى الأمر . إن الفن طويل والعمر قصير . وإن هذا الهراء الذى نكتبه ليس إلا محطات صغيرة نجتازها أثناء السفر فى طريق الفن ، لا ينبغى أن نقف عندها ولا أن نرجع البصر إليها . إن ما يهمنى الآن هو المحطة التى بلغتها اليوم والمحطة التى أريد أن أبلغها غداً . إنى فى كل محطة

يخيل إلى أنى فى مبدأ الطريق .

ــ إنه لتواضع .

ــ لا . إنه ليس كذلك . ينبغى أن تكون معى فى هذا السفر الطويل حتى تدرك أن « أهل الكهف » شيء قد مات ودفن منذ أعوام .

ــ إنها لم تمت .

ــ الكلام معك أيها الشاب لا فائدة منه .

ــ معذرة يا أستاذ . إنى لن أصدق أن « بريسكا » ميتة الآن. مهما تقل ومهما تفعل . إنى أسمع كلامها وأعيش معها . وأكاد أراها الآن . إن ملامحها وتقاطيع وجهها وقوامها الرشيق وخصرها النحيل ... كل هذا حى فى رأسى وقلبى . كل هذا مصور فى مخيلتى تصويراً لا تمحوه كلماتك التى قلتها اليوم ولا أضعافها . إنى كنت قد جئت لأحدثك حديثاً طويلا عن « بريسكا » وأستزيد من خبرها ولكن ... أرجو أن تأذن لى الآن فى الانصراف .

ومد لى يده فجأة وودعنى فى صمت وذهب سريعاً وأنا أنظر

إليه حتى اختفى وحال بينى وبينه الباب . وأطرقت لحظة ثم رفعت رأسى ونظرت إلى صاحبى الأديب فإذا هو كذلك مطرق مفكر . وأخيراً التفت إلى وقال :

— ما كان ينبغى لك أن تقول كل هذا الكلام لهذا الشاب المسكين .

— أو كان ينبغى لى أن أتركه فى وهمه مخدوعاً فى خلود كاذب .

— ليس من حقك أن تصدر على نفسك أحكاماً أمام الناس . إنك ما دمت قد استطعت أن تخلق للناس أوهامـاً جميلة وأحلاماً حلوة يعيشون فى جوها فإن من الإثم أن تخرجهم منها بكلمة . ومع ذلك فكن على ثقة أنهم لن يصدقوا كلامك وإن حرصهم على هذه الأوهام التى ألفوها لأشد من حرصهم عليك أنت وعلى حقيقتك التى تزعمها . أترى لو بعث نبى من الأنبياء اليوم وجاء يهدم دينه الذى أتى به قديماً ، ماذا يكون شأنه . أيصدقه الناس بسهولة أم تراهم يرجمونه بالحجارة ويرمونه بالكذب والجنون ؟؟ إن تمسك الناس بالوهم الذى اعتادوه لأقوى من كل حقيقة .

— يا للعجب . أليس لى الحق إذن أن أهدم نفسى . إنه الجنون أن أتصور أن ليس فى استطاعتى أن أهدم نفسى .

— نعم وإنها لنعمة حرمها المؤلف فيما حرم من أشياء . إن حقوقه على نفسه ليست محفوظة له كحقوق الطبع والتأليف !

مع الأميرة الغضبى !

الأميرة الغضبى هى « يريسكا » بطلة قصتى « أهل الكهف » . وهى مثلى تحب الكتب ، هذه الحسناء النضرة كالزهرة . وكانت تعيش ربيعها الباسم مع مؤدبها « غالياس » ، هذا الشيخ الفانى ذو اللحية البيضاء . إلى أن وضع القدر أمامها : الفتى الجميل « مشلينيا » . فما كاد يتفتح قلب هذه الزهرة للحب ، حتى رأت « القدر » قد حال بينها وبين حبيبها ، وسطر فى اللوح أمر موته . وقدر « يريسكا » هو « أنا » . ولا فخر . أنا الذى فى يدى سعادتها وشقاؤها ، أسطرهما بكلمة من قلمى ! لقد تذكرت هذا ، ذات ليلة ، فحدثتنى نفسى أن أهبط إلى عالم مخلوقاتى ، فأرى الراضى منهم والساخط ، وأطوف بمشاعرهم نحوى ونحو الأشياء كما كان يفعل آلهة الأساطير !

ذهبت إلى الأميرة يريسكا . فوجدتها تتألق فى حسنها

المعهود ، ولكنه حسن عليه غيمة حزن . فما إن رآني وعرفني ، حتى هبت إلى مصافحة :

— إنى أبغضك ! .. من أعماق قلبى .

— أستغفر الله ! لماذا يا سيدتى ؟ ما جنايتى !

— وأحتقرك كما أحتقر غالياس .

— لاحظى يا سيدتى قبل كل شيء أن ليست لى لحية غالياس !

— قل لى أنت قبل كل شيء : ماذا عليك لو انك أبقيت لى مشلينيا ؟ .. لو أن قلمك تمهل لحظة صغيرة و لم يقصف تلك الحياة قبل أن يحضر غالياس وعاء اللبن ... ! ماذا كسبت أنت من موت مشلينيا قبل الأوان ؟ لحظة واحدة صغيرة كانت كافية لإنقاذ الفتى ... لكنك ضننت بها أيها القاسى الظلوم ! .

— لست قاسياً يا سيدتى ولا ظلوماً . ولو كنت أملك أمر بقاء مشلينيا دقيقة واحدة لأبقيته لك عن طيب خاطر .

— لو كنت تملك ؟ ومن غيرك يملك ؟!

— لا تحملينى يا سيدتى هذه التبعة !

— جميل أن يتنصل خالق من تبعة خلقه كل هذا لبتنصل !!

ـــ آه ! . ما أظلم الإنسان ! وما أحوج الخالقين إلى الرحمة والرثاء فى هذا الوجود !

ـــ نحن الظالمون وهم المظلومون ! شىء بديع !

ـــ إنكم تحملونهم التبعات وترمونهم بالظلم وهم براء من كل صفة من هذه الصفات . فلا ظلم ولا عدل ، ولا قسوة ولا حنان ، ولا غضب ولا رضى ، تلك عواطف لا يعرفونها ولا يشعرون بها . ولو أصغى إله لصوت آدمى لانحل الكون فى طرفة عين . كما تنحل قصة أهل الكهف لو أنى أصغيت إلى شخص واحد من أشخاصها ! فأنت تريدين أن أؤخر موت مشلينيا دقيقة . ولا تعلمين أن هذه الدقيقة الواحدة كانت كفيلة أن تغير وجه القصة وتقلب مصير الأشخاص وتلقى عناصر الفوضى فى العمل كله . كلا يا سيدتى . إنى لم أرد موت مشلينيا و لم أرد بقاءه . و لم أحب و لم أكره . و لم أظلم و لم أعدل . إن الخالق لا يمكن أن يخضع لغير قانون واحد : « التناسق » .

ـــ هذا كلام تبرر به قسوتك .

ـــ أنت يا سيدتى لا تعرفين ما مهنة الخالق ! ثقى أن كلمة

« قسوة » لا معنى لها فى تلك المهنة .

ـــ أنت كائن لا يمكن أن يفهمنى و لا يمكن أن يفهم الحب .

ـــ لا أفهمك ، هذا صحيح . أما أنى لا أفهم الحب فهذا غير صحيح .

ـــ هل أنت تفهم الحب ؟

ـــ قليلا .

ـــ هل أحببت فى حياتك ... ؟

ـــ أيتها الاميرة ! لا أسمح لك بالكلام فى شئونى الخاصة .

ـــ معذرة ! إنما أردت أن أعرف كيف فهمك للحب ؟

ـــ ماذا تريدين أن تعرفى ؟ أحب الخالق وهو روح التناسق ؟ أم حب المخلوق ... ؟

ـــ بل حب المخلوق ... حب القلب ... الحب ما أريد . آه ... صدقت ما دمت أنت خالقاً وأنا مخلوقتك فإن بيننا تلك الهوة ... فأنت لا تنظر إلىّ بعين خاصة . ولا تعرفنى معرفة خاصة . ولا تتصل بى اتصالا مباشراً . إنما تنظر إلىّ كعنصر من عناصر الكل المتسق . تنظر إلىّ بعين ذلك القانون الذى تحكى عنه ، وينبغى أن

تكون مخلوقاً مثلى وعنصراً أو جزءاً مثلى حتى يكون بيننا ذلك الارتباط الخاص وذلك الالتفات الخاص . فهبك كذلك وهبنى أحببتك فهل تحبنى ؟

ــ يا لك من ذكية ماهرة !

ــ أجب . إذا أحببتك ... !

ــ ومشيلينيا ؟

ــ دعنا الآن من مشيلينيا .

ــ إذا أحببتنى . ؟ أنا ؟

ــ نعم ، أنت .

ــ إنى أخشى هذا الحب .

ــ لماذا ؟

ــ لأنك لن تحبينى .

ــ من أين لك العلم ؟

ــ هل رأيتنى ؟ إنى لا أشبه مشيلينيا فى شىء ، فليست لى فتوته ولا جماله ولا قوامه ولا ذراعاه ولا شفتاه ...

ــ ولا قلبه ؟

— أتردد قبل أن أجيب ؛ قد يكون لى قلبه ، لكن ثقى أنى لو شقيت فى الحب فإنى لا أذهب إلى الكهف ولا أموت جوعا . أولا ... ليس عندى كهف أموت فيه . وإن وجدنا الكهف ، فلسنا واجدين الشجاعة والصبر عن أكل الشواء والدجاج يوماً واحداً...

— إذن ليس لك حتى قلبه !

— نعم واأسفاه !

— إذن ما يصنع مثلك لو شقى فى الحب ؟

— يذهب إلى كهف من كهوف النبيذ فى مونمارتر ويؤلف قصصاً تمثيلية .

— مرحى ! . مرحى ... !

— لا تغضبى ايتها العزيزة يريسكا .

— أهذا فهمك للحب ؟

— ماذا تريدين ؟ إنا لسنا قديسين !

— نعم ، لستم سوى خالقين ! آه ... كنت أحسبكم خيراً من هذا !

ـــ كذلك قال غالياس يوماً فيما أذكر عن القديسين الثلاثة إذ خالطهم وحادثهم . ألا تذكرين ؟

ـــ كنت أظنك على الأقل خيراً من غالياس المسكين فهما للحب !!

ـــ يشق على أن يخيب ظنك فى يا عزيزتى !

ـــ عزيزتك ! كلا . لست أسمح لك ! إنك تخاطبنى كما لو كنت تعرفنى من قبل ، أو كما لو كنت لى بعلا !!

ـــ حقيقة أيتها الأميرة ليس لى هذا الشرف !

ـــ تستطيع أن تنصرف يا هذا !

ـــ أنصرف إلى أين أيتها الأميرة ... ؟

ـــ أتسألنى ؟ إلى حيث كنت ... إلى سمائك ...

ـــ أين هى هذه السماء ؟ فى قهوة « سيرانو » ؟ أو فى قهوة « جروبى » ؟ ما أكثر أوهامكم أيتها المخلوقات !

ـــ نعم ما أكثر أوهامنا ... وتخيلاتنا .. وخيبة آمالنا !

ـــ ذلك أنكم تريدون أن تخضعوا كل شىء لخيالكم أنتم .

ـــ صدقت ! إننا نتمثل القديسين والآلهة كما تصورهم لنا عقولنا

— ثقى أن لو كشف المجهول يوما لأعين البشر لصاحوا كلهم بكلمتك التى لفظتها الساعة : « كنا نحسبه خيراً من هذا ... ! »

— ربما ...

— ذلك أنهم سيرون المجهول شيئا لا علاقة له بعقلهم ، ولا بخيالهم ، ولا بمنطقهم ، ولا بعواطفهم ، ولا ببشريتهم .

— إنا مخلوقات . ماذا تريد من مخلوقات ؟ إنا لا نستطيع أن نخرج من أنفسنا لنفهم ونرى شيئا غير أنفسنا .

— ومع ذلك فإن لهذه المخلوقات كنزاً لا يوجد عند الآلهة .

— القلب

— نعم .

— إنى أؤمن بما تقول ، فها أنت ذا خالق من نوع تافه ... وليس لك القلب الذى لمشلينيا ... !

— أعترف أنى أقل شأنا من حبيبك .

— ومع ذلك فقد اجترأت يدك على إطفاء حياته الجميلة .

— عدنا إلى الاتهام .

— إنى أبغضك .. أمقتك ... أبغضك من أعماق قلبى ...

— سبحان الله ! أقسم أن لا فائدة من مناقشة امرأة تحب .

أمام حوض المرمر !

فى ليلة من ليالى وحدتى الطويلة ، تاقت نفسى إلى أنيس . فذكرت الملكة « شهرزاد » . وهى أيضاً من مخلوقاتى الجميلات. فقلت : لا يؤنسنى الليلة غيرها . فهبطت إلى قصرها . كما هبطت إلى الأميرة « پريسكا » من قبل . نعم .. ! وهل يؤنس مثلى إلا الملكات والأميرات ! إن عالمى الزاخر باللآلئ والحلى والتيجان هو دائماً فى خدمتى ! هذا كل عزاء مثلى من « الخالقين » المتدثرين فى سحب « عزلتهم » الباردة !

* * *

ذهبت إلى شهرزاد ، فوجدتها متكئة على الوسائد تنظر باسمة فى حوض من المرمر ، قد انعكست أشعة عينيها الذهبيتين على مائه ، فاتخذت صفحته الهادئة لوناً غريباً ... وجلس بين يديها الوزير الجميل « قمر » فى إطراقه وحيائه ونفسه الزاخرة بألوان العواطف الجميلة المكتومة . وكان بينهما هذا الحديث :

شهرزاد : (**فى مكر**)أراك يا قمر تسرف فى إطرائى وتبخس قدر صديقك شهريار .

الوزير : لم أبخس قدره .

شهرزاد : (**فى مكر**) يخيل إلىّ أنك نسيت ما بينكما من ود عجيب .

الوزير : (**فى حدة**) لم أنس شيئاً .

شهرزاد : (**فى خبث**)بلى !

الوزير : (**فى حدة عمياء**) إنى لم أنس شيئا . إنما أبين لك لماذا أنت تحبينه أسمى الحب ، فلا تزعمى لى غير هذا مرة أخرى . إنى لست أخدع . لست أخدع .لست أخدع !

شهرزاد : (**هادئة**) قمر ؟ ماذا دهاك ؟

الوزير : (**يثوب إلى رشده**) مولاتى مغفرة . إنى ....

شهرزاد : إنك أحيانا لاتملك نفسك .

الوزير : إنى ... أردت أن أقول إنك غيرته ، وإنه انقلب إنسانا جديداً منذ عرفك .

شهرزاد : إنه لم يعرفنى .

(وهنا يسمعان طرقا شديداً فقد طرقت أنـا عليهما الباب)

الوزير : (**يرهف السمع**) هذا هو .

شهرزاد : إن شهريار يحمل دائما مفتاحه ولا يدخل القصر إلا من سردابه .

الوزير : من الطارق إذن ؟

شهرزاد : اذهب وجئنى بالخبر .

(الوزير يخرج مسرعا)

شهرزاد : (**كالمخاطبة لنفسها**) مسكين أنت يا قمر !

(الوزير يعود على عجل)

قمر : مولاتى ! أتدرين من الطارق ؟ رجل عجـيب الزى ، يقول إنه المؤلف ، ويلتمس المثول بين يديك .

شهرزاد : (**فى عجب**) المؤلف ؟ أى مؤلف !

قمر : لم أفهم مراده . إنما هذا ما قاله لى .

شهرزاد : أدخله لنتبين أمره .

قمر : أفى مثل هذه الساعة من الليل ؟ .

شهرزاد : وماذا يضير . إنك معى .

قمر : نعم سألبث معك .

(يخرج قمر فى الحال)

شهرزاد : (**كالمخاطبة لنفسها**) المؤلف ؟ : أتراه أحد السحرة قد أرسل فى طلبه شهريار ؟

* * *

وقادنى قمر إلى شهرزاد ، فدخلت أتأمل المكان وأنظر إلى عجائب القصر . ورأتنى شهرزاد وتأملت زيى قليلا ، ولكن حسنها وهيبتها لهما عين السحر فى نفوس الخالقين والمخلوقين فوقفت أقول مأخوذاً :

ــ مولاتى ...

ــ ماذا بك ؟.

ــ أأنا بين يدى شهرزاد ؟.

فهمس فى أذنى الوزير الجميل :

ـــ نعم أنت فى حضرة الملكة العظيمة .

فقلت كالمخاطب لنفسى :

ـــ نعم ، لا يمكن لهذا الجمال أن يكون لغيرها .

ورأت الملكة الجميلة ما بى فقالت لى :

ـــ بم تهمس كمن به مس ؟.

ـــ مغفرة أيتها الملكة ، إنى ...

ـــ لماذا تنظر إلى هكذا ؟.

ـــ هذا الجمال ...

فالتفتت شهرزاد إلى وزيرها قائلة :

ـــ أرأيت يا قمر ، إنك قد جئتنى آخر الليل بمعجب مفتون .

فنظر إلىّ قمر قائلا فى شىء من الحدة :

ـــ ماذا جئت تصنع هنا أيها الرجل ؟

فقلت همساً :

ـــ لست أدرى ...

ثم عدت إلى تأمل شهرزاد . فقالت :

ـــ أرجو منك أن لا تطيل النظر إلىّ هكذا .

فقلت :

— مولاتى ! لا أستطيع .

فقالت وهى تبحث بعينيها الفاتنتين :

— أين الجلاد ؟

فقلت :

— نعم ، خير لك أن تأمرى بى فتطاح رأسى من أن تطلبى إلىّ أن لا أعجب بك .

— أترانى حقاً جميلة ؟

— نعم .

— إن لى جسداً جميلا ! أليس لى جسد جميل ؟

— ليس الجسد وحده .

— اقترب .

— كلا .

— لماذا ؟

فأشرت إلى حوض المرمر :

— هذا الحوض ..

— أيخيفك هذا الحوض ؟

— أخشى أن تزل قدمى فأسقط وأنا لا أحسن السباحة .

— إنه قليل الغور .

— لا شيء عندك قليل الغور .

فتفرست شهرزاد فى وجهى وقالت :

— عجباً ! إنك تتكلم كما يتكلم شهريار ! من أنت ؟

— خادمك توفيق الحكيم .

— أتعنى أنك صاحب توفيق أم أنك صاحب حكمة ؟ .

— لا هذا ولا ذاك ، ولكنه اسم من الأسماء .

— وما صناعتك ؟ .

— أؤلف القصص .

— مثلى ؟

— لم أبلغ شأوك ، وليس لى ذكاؤك ولا خيالك .

— إنك تسرف فى إطرائى وتبخس قدر نفسك .

— قدر نفسى ؟ وما أدراك به ؟ وهل عرفت لى قصصاً على الأقل أيتها الملكة ؟ .

ـــ كلا . ماذا صنعت أنت من القصص ؟ .

ـــ قصة « شهرزاد » .

فظهر العجب على وجه الملكة :

ـــ أنا ؟

ـــ نعم أنت .

ـــ متى صنعتها ؟

ـــ ليس يعنى الزمن الذى صنعت فيه .

ـــ أصنعتها فى الماضى ؟

ـــ بل فى المستقبل .

ـــ فهمت . هذا الزى العجيب ..

ـــ نعم . إنى أهبط إليك الساعة من المستقبل الذى أعيش فيه لألقاك فى الماضى الذى فيه الآن تعيشين ، كما يهبط الطائر من الشمال إلى الجنوب فى غابة متسعة الأرجاء .

ـــ يا للعجب ! كلامك هذا يذكرنى بشهريار .

ـــ أترين هذا ؟

ـــ لكنك أهدأ نفساً منه .

— نعم ، الآن .

ونظرت شهرزاد إلى ملياً :

— إنى أعجب كيف أن القدر لم يجمع بيننا قبل الآن ؟

— لقد جمع بيننا دائماً .

— أين ؟ .

فأشرت إلى قلبى وقلت :

— هنا .

فقالت فى عجب وهى تشير إلى قلبى :

— هنا ؟

— نعم . ومن هنا خرجت أنت إلى الوجود فما أنت إلا صنع النار والنور الكائنين هنا .

وأشرت مرة أخرى إلى قلبى . فقالت باسمة :

— هذا جميل .

— أرأيت من أى مادة أنت مصنوعة يا مخلوقتى العزيزة !

وتململ قمر ، فقال مشيراً إلىّ فى عنف :

— من هذا الرجل ؟

فقلت فى الحال :

ـــ صه أيها الوزير . فكر فى شأنك أنت ، ودعنى فيما أنا فيه . فما جئت الليلة إلا من أجل شهرزاد .

فقالت شهرزاد فى ابتسامة عذبة :

ـــ جئت من أجلى ؟

ـــ نعم .

ـــ وماذا تريد منى ؟ .

ـــ أريد أن أعيش إلى جانبك .

وهنا ثار غضب قمر فصاح بى :

ـــ أيها الرجل ! من أنت أيها الرجل ؟

فقلت له هادئاً :

ـــ أنا كائن أشقى منك حالا .

فقالت شهرزاد :

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنى أشعر ببرد الوحدة يكتنفنى فى تلك السماء ذات السحب .

فقالت باسمة :

ــ ويل للخالقين !

ــ صدقت ، أجل يا شهرزاد لو لم يعش الخالق فى مخلوقاته لقتله برد الوحدة .

ــ تريد إذن أن تهبط إلى الأرض .

ــ لقد قلتها أنت مرة يا شهرزاد : لا شىء غير الأرض ؟

ــ أين شهريار يسمع منك ؟ وهو الذى هجر الأرض يريد السماء ! .

ــ لا تخشى عليه من بأس . سوف يعود إليك .

ــ متى ؟

ــ يوم يعلم أن السماء فى الأرض .

ــ يا هذا ... أريد منك شيئاً ..

ــ ماذا ؟

ــ أمنحك قبلة . !

ــ تمنحيننى قبلة ؟

ــ نعم .

ـــ وهبتها قمراً .

فنظر قمر إلى شهرزاد مستنكراً قولى وصاح :

ـــ مولاتى !

فقلت له :

ـــ خذها أيها الأبله . من ذا الذى يرفض قبلة من شهرزاد ؟

فلم يحتمل قمر الرقيق أكثر من ذلك فخرج سريعاً .

فقلت :

ـــ هرب الأحمق .

وعندئذ نظرت إلىّ شهرزاد ملياً وقالت :

ـــ عرفتك أخيراً .

ـــ عرفتنى ؟ من أنا ؟

ـــ أأنت هو ؟ أم أنك تعيش فيه ؟

ـــ من هو ؟

ـــ شهريار !

فقلت مضطرباً :

ـــ لست أدرى ... هذا سؤال لا ينبغى أن يوضع ولا ينبغى أن

يلقى على .

فقالت :

ــ إذن ارتفع . فما أنت إلا شبح من الأشباح .

ــ شبح من !

ــ شبح شهريار . !

ــ لا تقولى هذا . إنما هو الشبح وأنا الحقيقة .

فقالت :

ــ أمام الأبد هو الحقيقة التى ستبقى وهو خالقك وهو مخلدك ، وما أنت إلا خيال سوف تتبعه صاغراً على مر الأيام . وإن ذكر اسمك على الدهر فإنما يذكر خلف اسمه . إنك تزعم الآن أنك صانعنا وخالقنا أمام ذلك الزمن المحدود ، وإنما نحن فى الحقيقة صانعوك وخالقوك فى الغد أمام الخلود ...

ــ ويل لى .

ــ ماذا بك ؟

ــ أأنا عندك شبح ؟ تلك هى السخرية الكبرى ! فى وحدتى ينخر فى نفسى الشك . فإذا هبطت بينكم ألتمس اليقين ، علمت

أنى شبح لا حقيقة ، وأنى وليد صنعكم أنتم أمام الدهور .

فقالت :

— كل شيء يصنع كل شيء ..

— نعم .

— ليس هناك إلا حقيقة واحدة .

— ما هى ؟

— أننا جميعا لسنا حقيقة .

— وأنا معكم ؟

— وأنت معنا لا فرق بينك وبيننا .

فتأملت قولها لحظة ثم قلت :

— صدقت ! ولا أمل لى مع ذلك فى أن أعيش إلى جانبك ؟؟

فقالت :

— اليوم كلا .

— ومتى إذن ؟

فقالت :

ـــ فى الغد ، يوم تصبح من مادتنا ، لو أن لنا اليوم مادة .

فأطرقت قائلا :

ـــ فهمت . وداعا يا شهرزاد .

ـــ إلى الملتقى !

بين الحلم والحقيقة

« أحدهما شبح الآخر »

« هو »: صانع تماثيل ، قد جلس أمام تمثال صنعه لأميرة فرعونية .

« هى » : زوجته ، جميلة تشبه التمثال .

هو : **(يرنو إلى التمثال)**

نفريت ! ما أجملك ! عيناك فى صمتهما العجيب تابوتان لامعان ، يرقد فى أحدهما الحب ، وفى الآخر ... الحب

هى : **(لزوجها الفنان)**

ألن تكف عن مخاطبة هذا التمثال الصخرى ؟

هو :

نفريت ليست من الصخر .

هى :

إنك جننت .

هو :

إنى أحب .

هى :

تحب تمثالا من الصخر ؟

هو :

إنها ليست من الصخر ، أللصخر حرارة وأنفاس ؟

هى :

تلك حرارتك وأنفاسك

هو :

نفريت !. ألمس جسمك الحار فيرتجف جسمى الملتهب .

هى :

إنما جسمك يلتهب من الحمى .

هو :

ما أجملك يا نفريت ! رأسك ذو الشعر الأسود شمس من الأبنوس . رأسك اللامع كرة ساحر تبهر بصرى وتثقل رأسى . إننى أشعر الآن بدوار .

هى:

لا تطل النظر إلى هذا الصخر اللامع .

(ترده عن التمثال)

هو :

دعينى يا امرأة !

هى :

كلا . لن أدعك هذه المرة . لقد ضقت ذرعاً بهذا التمثال ... لا تحدق فيه ببصرك ... إنك تحلم ... أقسم أنك فى حلم .

هو :

دعينى يا امرأة !

هى:

اصغ إلى لحظة ، أتوسل إليك أن تصغى إلى .

هو :

نفريت . ما أجملك يا نفريت ! . صوتك الرقيق فراش جميل الألوان يطير فى لطف ورقة من جوف زنبقة حمراء !

هى :

وصوتى أنا ، ألا تسمعه ؟

هو :

نفريت !

هى :

إنما أنا التى تحبك ... ألا تسمع صوتى أنا ؟ ألم يعد رقيقاً كأجنحة فراش جميل الألوان ، وشعرى ... ألم يعد شمساً من الأبنوس . لم تنادى نفريت بما كنت تنادينى به من قبل ؟

هو :

نفريت ! لن يُصنع مثلك بغير أن تفنى عبقرية ألف إله . ولن يخلق نظيرك إله دون أن يجن !

هى :

أيها المجنون ... لا سواى فى الوجود ؟ ... انظر إلى أنا ... لم تنعت نفريت بما كنت تنعتنى به من صفات ؟

هو :

بى ظمأ إليك يا نفريت !

هى :

وأنا ... أما بك ظمأ إلى ... لماذا لا تأخذ رأسى بين يديك كما كنت تفعل ، لترتشف من فمى عصير اللآلئ ؟

هو :

قبلات نفريت .. عسل من نار ، بل خمر من عصير اللآلئ فى كأس من نار ...

هى :

ويحك ! تلك صفاتى ... أسمائى التى كنت تطلقها على أنا وحدى ... أنا جمالك الوحيد ، أنا عندك منبع الحسن الخالد .

هو :

من أنت ؟

هى :

من أنا ؟! ألا تعرفنى ؟ إنى أبغضك .

هو :

إنها لا تبغضنى ؟ إنها تحبنى ، إنها لا تحب « أسرتسن » ... آه ... الغيرة .

هى :

الغيرة ؟!

هو :

جعران مخيف يسير فوق شغاف قلب ..

هى: (**تضحك**)

أنا ؟ أغار من تمثال ؟ أغار من تمثال ؟ أنا أغار من جمال كاذب !

هو :

أنا الذى يغار من زوجها « أسرتسن » . إنه إلى جانبها أبداً ... فوق عرش واحد ... تحوطهما هالة من أنفاس الآلهة ... وتحفهما العبيد بمراوح النخيل .

هى :

أنت فى حلم ... أقسم أنك فى حلم .

هو :

بل فى يقظة هنيئة ... إنها معى أبداً ، إنها ترنو إلى بعينين من ذهب .

هى :

أيها النائم ... وعيناى أنا ... ألا تراهما ؟

هو :

من أنت ؟

هى :

انظر إلى عينى .

هو :

عيناك من نحاس .

هى :

إنك لم تبصرهما ، أنت لا تريد أن تبصرهما ، آه . لم صنع هذا التمثال ؟

هو :

نفريت ... رأسك اللامع بين يدى كوكب أسود بين يدى إله ، كوكب لا نهار له .

هى :

ورأسى أنا أيها المجنون . ألا تراه ؟

هو :

من أنت ؟

هى :

انظر إلى شعرى الأسود اللامع .

هو :

رأسك ليل له نهار .

هى :

إنى أمقتك مقتاًشديداً . وأبغضك أكثر مما تبغضنى ، وأمقت من تحب ، وأبغض هذا التمثال .

هو :

نفريت ! أنت لى وحدى ، أنت كوكبى ، فلنسبح سويا فى بحار الفضاء تاركين خلفنا أسرتسن ... ولنبحث عن جزيرة الهناء الدائم ... تلك الجزيرة التى خلقتها الآلهة لأنفسها ثم فقدتها ... هلمى بنا نبحث عنها معاً فربما كان حظنا أوفر من حظ الآلهة .

هى :

أقسم أنك فى حلم ، لكنى سأوقظك ...

هو :

نفريت .. جزيرة الهناء الدائم ليست فى محيطات الفضاء كما تزعم الآلهة ... عبثاً تبحث عنها الآلهة فى محيطات الأثير .. جزيرة الهناء الدائم المفقودة لا يعرف مقرها غيرى ... ميلى بأذنك نحوى كى أهمس لك بمكانها . أتدرين أين جزيرة الهناء الدائم ؟ هى ليست فى محيطات الفضاء ، هى فى محيط ... عينيك ..

هى :

محيط عينيها ... سأجعلك تفيق من تأثير عينيها . انظر ؟ ماذا ترى بيدى ؟

(تأتى بمطرقة من الحديد)

هو :

لا تقربى نفريت .

هى :   **(تحطم رأس التمثال)**

انظر هذا الكوكب الأسود تمحوه المطرقة !

هو:

آه ..

هى :

وهذا الجسد الجميل الحار يتفتت قطعاً باردة تحت ضربات المطرقة ...

هو :

آه ..

هى :

والآن .. انهض واجمع أجزاء نفريت الخالدة !!

هو : (يفيق)

أين أنا ؟ ... أحس دوارا ، أين الرأس اللامع ؟...

هى :

هاهى ذى تحت قدمى نفريت ورأسها اللامع ... وعيناها اللامعتان اللتان أنامتاك طويلا ... الآن أنت لى وحدى .

هو :

أين أنا وأين كنت ؟

هى :

لست أدرى أين كنت ! . إنما أنت الآن هنا معى وقد عدت

إلىّ ...

هو : (**ينظر إليها مليا**)

أيتها العزيزة ، أنا هنا معك ! اجلسى إلى جانبى .

هى :

لماذا تطيل إلى النظر هكذا !؟

هو :

كأن رأسك شمس سوداء ...

هى :

بل ليل له نهار ..

هو :

كوكب من الأبنوس ... وعيناك ، كأن عينيك من ذهب ..

هى :

عيناى من نحاس ..

هو :

عيناك بحيرتان صافيتان يسبح فى إحداهما الحب وفى الأخرى ... الحب !

هى :

ألى هذا القول أم لنفريت ؟

هو :

من نفريت ؟

هى :

ألا تعرفها ؟

هو :

لا أعرف سواك يا عزيزتى فى الوجود . ما أجملك ! كم أود لو أتناول رأسك الأبنوسى بين يدى وأرشف من فمك رحيقاً فى لون الورد . بل خمراً من عصير اللآلىء فى كأس من ورد .

هى :

أرجو منك ألا تخاطبنى بما كنت تخاطب به نفريت ..

هو :

من نفريت ؟

هى :

ألم ترها ؟

هو :

كلا ... لم أر غيرك . إنى أريد أن أبحث فى محيط عينيك عن الهناء الدائم .

هى :

دعنى ! إنك ترى فىّ الآن ما كنت ترى فى الأخرى .

هو :

من هى الأخرى ! ليس فى الحياة غيرك أنت ، لأن الطبيعة لن تخلق سواك . وأى إله يصنع مثيلك دون أن يتهم بالتزييف !

هى :

آه ! هذا ما قلته لها أيضاً ! ...

هو :

لمن ؟

هى :

أترى ...

هو :

ماذا ؟

هى :

ترى أكنت أنا هى ؟ أم شبحها ؟

هو :

من هى ؟

هى :

أشربت شيئاً ؟

هو :

كلا .

هى :

أتذكر أسطورة « السكير وزوجته ؟ » لقد كان يسرق حلى زوجته كى يسبغه على خليلته ، ثم يسرق حلى خليلته كى يخلعه على زوجته .

هو :

ومن خليلته ؟

هى :

زوجته .

عدو إبليس

(« عزرائيل »وقد انصرف عن دار النبي« محمد » بعد وفاته يرى « إبليس » مقبلا فرحاً مبتهجاً ...)

إبليس : هل قبضت روحه ؟

عزرائيل : وما شأنك وهذا ، أخزاك الله ؟

إبليس : نعم ، نعم ، لقد مات . أليس هذا صوت ابنته فاطمة تبكي وتصيح : « أبتاه ، أبتاه . أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه ! جنة الفردوس مأواه ! يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ! »

عزرائيل : وما يعنيك من هذا الأمر ؟

إبليس : أوليس هذا أيضاً صوت زوجته عائشة فى بكاء وشهيق : « واحر قلباه ! وامصيبتاه ! الآن قد انقطع عنا خبر السماء ! »

عزرائيل : اغرب عن هذا المكان !

إبليس : ثم ها هو ذا صوت نسائه كلهن يبكين : « واثكلاه ! واثكلاه ! »

عزرائيل : اغرب عن هذا المكان !

إبليس : ما أجمل هذا النهار ... إن نفسى لتكاد تتفجر شعراً وغناء . أصغ إلى هذه الأغنية :

ذهـــب عـــدوى إلى الفنـــــــاء

اليـــوم عيـــدى فـــإلى الغنـــاء

عزرائيل : صه قبحك الله وقبح صوتك !

إبليس : صوتى منذ اليوم يستطيع أن ينطلق حراً فى أرجاء الأرض . صوتى منذ الآن يستطيع أن ينفذ إلى تلك القلوب التى كانت تميل عنى لتتلقى أخبار السماء . نعم الآن قد انقطع عن الأرض خبر السماء . لقد عاد إلىّ مُلك الأرض من جديد .. وافرحتاه ! وافرحتاه !

عزرائيل : خسئت ! إن نور السماء قد نفذ إلى قلوب الناس ، فهيهات بعد اليوم أن يُصغوا إلى صوتك !

إبليس : إنك لا تعرف الناس مثلما أعرفهم . إنى أعرف كيف
أمر بأناملى مراً رقيقاً على أوتار قلوبهم ، فيذهلون ،
وأغنى بصوتى هذا غناء شجياً فيطربون ... إنك لا
تعرف ما هى الأغانى التى أغنيهالهم . إنى أغنيهم أغانى
الأرض لا أغانى السماء ! إن السماء تنير قلوبهم حقيقة
... ولكن لأجل قريب . لا تنس أنهم خلقوا من طين
الأرض . لا شيء يهز كيانهم غير أغانى الأرض !

عزرائيل : إنهم من الأرض ولكن أعينهم تتطلع إلى السماء .

إبليس : نعم ، عندما يشير لهم إليها النبى بأصبعه ، فإذا ولّى ...
عادت رؤوسهم تنخفض نحو الأرض . إنهم كالسنبلة
التى لا يرفعها غير الأصبع ، فإذا تركت سقطت .

عزرائيل : (**كالمخاطب لنفسه**) عجباً ! ولماذا إذن رضى الله أن
يقبض نبيه ؟! إن لله حكمة ، أجل ، أجل . أنسيت
أيها الخاسر أن النبى إنما يأتى للتبليغ ويمضى . إنه جاء
بالدين إنه يذهب ولكن الدين باق . الدين هو الأصبع
الدائمة التى لا تنفك تقيم المعوج . لا تفرح إذن كثيراً

بموت النبى . ما مات غير الجسد الزائل . أما المبادىء والتعاليم فهى قائمة فى وجه ريحك العاتية دائماً ... ما الرسول فى الحقيقة غير الرسالة ... والرسالة لا تموت .

إبليس : نعم ، نعم .

عزرائيل : ما بالك وجمت ! إن على وجهك الآن لغبرة تزيده قبحاً على قبحه ...

إبليس : الرسالة والدين والتعاليم.. هذا صحيح ... ولكن ... تلك أشياء لم تخفنى قط ... فقد استطعت فيما مضى أن أنزع عنها بعض قوتها ... إن المسيح قد بشر بالمثل الأعلى وفتح قلوب الناس لنور السماء . وذهب وقد ترك فى الأرض قديسين وخلفاء ساروا على سنته فى نبذ متع الأرض والانقطاع مترهبين فى الصوامع والبيع والصحارى ورؤوس الجبال يتأملون وجه الله وحده ، ناسين أو متناسين هذه الأرض التى من عناصرها صنعت أجسامهم .. هنا تراءيت لهم ولمن تبعهم فى صور مختلفة تذكرهم بما نسوه وتناسوه ،

وخاطبت أجسامهم بالمنطق الذى تفهمه ، وحدثت عناصر تركيبهم باللغة التى تعرفها ... فإذا أكثر الناس يصغون إلىّ فى أمور حياتهم ومعاشهم ولا يذكرون تلك التعاليم والمبادئ السماوية إلا يوم يجدون فى أوقاتهم فراغاً للتفكير فى السماء. إنى ذكى . إنى لم أرد قط فى حربى ضد المسيح أن أقتلع المسيحية من النفوس ، ولكنى أظهرت فى لباقة ما فيها من علو شاهق لا يستطيع المخلوقون من تراب وطين أن يبلغوه ماداموا آدميين ... فليصغوا إذن إلى أغانى الجسد وأناشيد التراب والطين ... وليطلب العلو من كان عنده فضل من فراغ ينفقه بعيداً عن الأرض والحياة... وبهذا أصبحت المسيحية الحق اليوم ترفاً روحياً لا يقتنيه غير خاصة الخاصة ، أولئك الذين لم أستطع أن أخاطب فيهم منطق الأجساد والعناصر ...

عزرائيل : لقد أدرك الله غرضك الأثيم فأرسل محمداً بدين لا ينكر منطق الأجساد والعناصر ... دين لا يعرف

الرهبنة ولا إنكار قوانين الأرض ... دين لا يكره أن يصغى أتباعه إلى أغانى السماء والأرض معاً ... ما وسائل حربك إذن ضد محمد والإسلام ؟

إبليس : حقاً ... تلك هى المشكلة ! لهذا كان ذلك النبى ألد عدو لى !

عزرائيل : إنه خاتم الأنبياء لأنه ضيق عليك الخناق ، وسد كل ثغرة يمكن أن تنفذ منها سمومك ... فماذا أنت صانع ؟ ..

إبليس : دعنى أفكر ...

عزرائيل : فكر طول الأبد ... فلن تظفر ...

إبليس : بل لقد فكرت وظفرت ... الأمر بسيط : يجب على أن أطمس خصائص هذا الدين ... إنى خبرت الناس لطول لصوقى بهم وعشرتى لهم .. إن الناس يميلون دائماً إلى التشبه والتشبيه.. هذه القرود الناطقة ... يصعب عليها التمييز والتفريق والنظر فى فلسفة الأشياء. غداً عندما يوارى محمد فى التراب ... ويصبح ذكراً

وطيفاً كموسى والمسيح لن يفرق الناس بين محمد وموسى والمسيح ، بل ربما قبل أن يواروه فى الحفرة ... انظر ... أليس هذا عمر بن الخطاب أحد خلفائه ؟ أصغ إليه ...

عزرائيل : إياك أن توسوس له بشىء .

إبليس : أصغ إليه ..

(عمر بن الخطاب يقوم فى الناس صائحا)

عمر : لا أسمعن أحداً يقول : إن محمداً قد مات ؛ ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى ، فلبث عن قومه أربعين ليلة . والله إنى لأرجو أن تقطع أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات !

عزرائيل : عجباً ! ما هذا الذى يقول ؟!

إبليس : أرأيت ؟ إنهم قد شبهوه بموسى ولما يهيلوا عليه التراب !

عزرائيل : كذبت ! إنما هى وسوسة منك !

إبليس : صه ! انظر ! هذا أيضا رجل من بين الناس يريد أن يقول شيئاً..

(ينهض أحد الناس صائحا)

أحد الناس إن رسول الله قد رفع كما رفع عيسى وليرجعن !

عزرائيل : رباه ! ماذا أسمع !

إبليس : أرأيت ؟ إنهم قد شبهوه كذلك بعيسى ولما يدرجوه فى الأثواب !

عزرائيل : لست أصدق ما أرى وما أسمع .

إبليس : لقد قلت لك إنى أعرف منك بالبشر .

عزرائيل : اللهم نورك ! كيف خفى على هؤلاء أن دينهم لم يكن تكريراً لما سبقه من أديان ! ... اللهم إنك منزه عن اللغو والتكرار !

إبليس : ما أبهج هذا النهار ؟ ألا تطربك أغنيتى :

ذهـــب عـــدوى إلى الفنــــــاء
اليـــوم عيـــدى فـــإلى الغنـــاء

عزرائيل : آه ، لو استطعت أن أبطش بك ...

إبليس : اقبض روحى إن قدرت ...

عزرائيل : ليس لك روح يقبض .

إبليس : بل لى روح لا تستطيع قبضه يداك الصغيرتان !

عزرائيل : يداى حقاً لا تستطيعان ؛ ولكن يد رضيع تستطيع ... إن روحك ليزهق فى اليوم ألوف المرات ... إن روحك لينطفئ فى قلب كل مؤمن ومؤمنة ومحسن ومحسنة وخير وخيرة ... إن روحك مارد من دخان يستطيع طفل بكلمة طيبة أن يحبسه فى قمقم من نحاس !

إبليس : ولكنى لا أموت ولا أذهب إلى الفناء ... لأنى سلطان الأرض وروح الأرض ... ولن أترك الأرض ما بقيت دودة تسعى فى الأرض .

عزرائيل : ابق ما شئت فى الأرض ولكنك لن تقوى على دحر أعدائك ..

إبليس : عجباً لك ! أو لم تر كيف أنى فى لحظة استطعت أن أغير معنى الدين الذى قضى محمد حياته كلها فى تجليته وإظهاره وتوضيحه ... ؟ ألم يذكر محمد قومه فى كل وقت أنه بشر يوحى إليه ... وأنه يحيا ويموت كبقية الناس ... وأن دينه هو دين الحياة ... الذى يحل للناس كل وسائل العيش الصالح على هذا الأرض ... وما دام دينه دين الحياة والفطرة والمنطق البشرى ... فلا ينبغى

أن يؤلهه الناس كما ألهوا المسيح ، ولا أن ينكروا إمكان موته كما فعلوا مع المسيح ... أليس هذا معنى دينه ؟ فكيف إذن بدل الناس الآن المعنى وانقلبوا يسيرون نحو فكرة التأليه ؟ ..

عزرائيل : إنهم لم يغيروا شيئاً ... ولئن وقع فى نفسك شيء من كلام عمر بن الخطاب ، فهو ولا ريب قد قال ما قال خوفاً من الردة !

إبليس : ولماذا يخشى ارتداد الناس عن الدين بموت محمد ... إنهم إذن كانوا يعبدون محمداً !

عزرائيل : اللهم ألق نورك فى صدور الناس !

إبليس : هيهات ! إن ما تسميه « وسوستى » قد استقر الساعة فى صدور الناس ..

عزرائيل : خسئت أيها الخاسر .. انظر .. انظر ..

إبليس : ماذا ؟ من هذا ؟

عزرائيل : هذا أبو بكر يقوم فى الناس ... أصغ إليه ...

(أبو بكر ينهض فى الناس صائحا)

أبو بكر : أيها الناس .. أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ... ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت !

عزرائيل : وافرحتاه ... أسمعت ؟

إبليس : ؟؟؟

عزرائيل : انظر أيضاً ... انظر ... هذا العباس يريد أن يقول شيئاً ...

(العباس يقوم فى الناس صائحا)

العباس : أيها الناس ... والله الذى لا إلٰه إلا هو ، لقد ذاق رسول الله الموت ، وإنه ليأسن كما يأسن البشر ... فادفنوا صاحبكم ... إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً ... أحل الحلال وحرم الحرام ... ونكح وطلق وحارب وسالم ... وما كان راعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم !

(عزرائيل يلتفت إلى إبليس صائحا صيحة انتصار)

عزرائيل : ماذا تقول الآن فى هذا ؟ اغرب الآن عن هذا المكان ... لقد ظهر الإسلام ، وتألق روح هذا الدين ... !

فوق السحب

حضر إلى ذات صباح مندوب إحدى الصحف ، وأخبرنى أن مكانى محجوز فى الطيارة الذاهبة إلى الإسكندرية فى اليوم الذى أختاره والساعة التى أحددها فترددت ... ولكنه أسرع يقول لى :

— إن سفر الأستاذ بالطيارة له قيمته من الوجهة الصحفية !

فنظرت إليه بذهن شارد وقلت كالمخاطب لنفسى :

— وإذا سقطت الطيارة بالأستاذ ؟!

فأسرع يقول دون أن يتبصر فى قوله :

— يكون أحسن وأتم ، فهو كذلك خبر له قيمته من الوجهة الصحفية !

فأفقت فى الحال :

— شىء جميل !

وتنبه الصحفى لزلة لسانه وارتبك واعتذر :

ــ غرضى يا أستاذ ..

ــ غرضك ظاهر من أوله ، ...

ــ من يعلم ؟ ... ربما عدت إلينا بالسلامة ...

ــ ربما ! ؟؟

ــ قصدى أقول إنك إن شاء الله راجع بالسلامة منشرح الصدر غير نادم على المخاطرة ، وما فاز باللذة إلا الجسور !

ومضى هذا الإبليس العصرى يزين إلى لا الهبوط من السماء إلى الأرض ، بل ترك الأرض والصعود إلى السماء ! ويتحدث عن جمال الرحلة الجوية فى ذاتها بغض النظر عن المقال المطلوب . وتمت الغواية وقبلت آخر الأمر ، وانصرف عنى الصحفى راضياً ظافراً فى الحالين مقالتى أو حياتى !!

وجلست أفكر قليلا . لقد كان على أن أسافر حقيقة إلى الإسكندرية بعد يومين لحضور عقد زواج أحد الأصدقاء . وكان على أن أصاحب « العريس » من القاهرة إلى الإسكندرية . فقلت

فى نفسى :

ـــ فكرة . لماذا لا أغرى « العريس » بالسفر معى فى الطيارة ...

و لم أضع وقتاً . وذهبت من فورى إلى ذلك الصديق السعيد فأنبأته الخبر واقترحت عليه هذا السفر فاصفر وجهه :

ـــ طيارة ؟!

وأطرق يفكر فى « حجج » يتذرع بها دفعاً لهذا البلاء ! وكأنه اهتدى إلى إحداها فقال :

ـــ أنسيت أن معى حقيبة كبيرة بها «الفراك » والقمصان المنشاة وملابس أخرى داخلية وخارجية .

ـــ اطمئن ! لكل راكب الحق فى ١٥ كيلو زيادة على وزنه .

فقال فى لهجة العزم القاطع :

ـــ مستحيل !

ـــ خفت ؟!

ـــ ليس الخوف . لكنى لا أرى معنى للسفر بالطيارة .

ـــ المعنى كل المعنى فى سفرك الآن بالطيارة . فأنت ذاهب إلى

روسك التى تنتظرك . وليس أحب إلى قلبها من أن تعرف أنك ذاهب إليها طائراً من فرط الشوق . أنسيت قول ذلك الأعرابى الولهان :

أسرب القطاهل من يعير جناحه

لعلى إلى من قد هويت أطير

عذر ذلك الأعرابى واضح . أما أنت فما عذرك يا من تجد فى هذا العصر سرباً من « قطا » شركة مصر ذات الأجنحة القوية والمحركات الكهربائية ؟

فلمعت عين صاحبى وأعجبته فكرة الطيران إلى عروسه . ووجد فيها شعراً وخيالا . فأذعن وقال :

— غلبتنى .

وانصرف يعد العدة . وبقيت أنا أمتع نفسى بلذة الظفر بنجاح الإغراء . ولا أنكر أنى أحسست الاطمئنان يجرى فى دمى . فأنا أخشى دائماً أن ينفرد بى « القدر » وجها لوجه . ويخيل إلى أن بيننا مبارزة خفية سلاحها السخرية الخطرة . وأعتقد أنه ينبغى لى أن أختفى دائماً وراء منكبى رجل كتبت له السعادة . تلك هى « التميمة » التى تقينى شر القدر . إن من الأمثال الشعبية التى

أحفظها مثلا أومن به : (ضع قدمك فى « مركوب » السعيد تسعد) . وهذا « العريس » رجل سعيد طيب القلب والسريرة ممتلئ الجسم صحة وقوة وإيماناً بالحياة ولا أظن ساعة مثله قد حانت . ويخيل إلى أن من الناس من يشيح الموت عنهم بوجهه كما يشيح إبليس عن المصحف أو الصليب . من أجل ذلك حرصت كل الحرص أن أكون فى ركاب هذا « السعيد » حتى لا يرانى القدر ولا يجرؤ على النظر إلينا بسوء .

وجاء يوم السفر وذهبت إلى المطار وجعلت عيناى الزائغتان تبحثان عن « العريس » فى كل مكان ؛ ودق الجرس ووقفت الطيارة المسافرة تأخذ مؤونتها من الزيت والبنزين . وتم وزنى مع عصاى « ستين » كيلو لا أكثر ولا أقل . وطلب إلىّ موظفو الشركة المبادرة بالركوب . فالتفت يميناً وشمالا .

فقال لى أحدهم :

— أتنتظر أحداً ؟

فأومأت بالإيجاب . فقال :

— فات الوقت . ولن يأتى أحد والطيارة قائمة فتفضل !.

عندئذ أدركت أن العريس قد هرب . وحدثتنى نفسى أن أتخلف أنا أيضاً وأعود أدراجى . ولكن موظف المطار استعجلنى قائلا :

ـــ من حسن حظك أنه ليس اليوم فى الطيارة غيرك .

وجذبنى من ذراعى فى رفق ومشينا حتى دنونا من السلم المدلى من باب الطيارة وليس بها أحد حقيقة . ولكن قد خيل إلى أنى أرى فيها شخصاً هو لا شك « القدر » أو « الشيطان » فى شبه بذلة رسمية سوداء وهو يبسم لى ابتسامة صفراء . فما تمالكت وقلت للموظف فى ذعر :

ـــ أنا وحدى فى الطيارة .

ـــ نعم من حسن الحظ . فأنت كأنك قائم بطائرة خاصة .

ـــ لا . لا .. أشكركم جداً . لا ضرورة لقيام طائرة خاصة من أجلى ... هذا شرف عظيم ...

وأردت أن أبتعد عن السلم وأن أهرب من المطار .. ولكن .. فجأة ظهرت سيارة تأتى مسرعة لمحت فيها الصحفى وكان قد أخبرنى أنه ربما جاء المطار لتوديعى . ولعله فى واقع الأمر ما جاء

إلا ليطمئن ويرانى بعينه صاعداً فى الجو . فلم أجد مفراً . وعدت إلى السلم صاغراً وأنا ألوح له بيدى فى غير حماس رداً على تحيته الخالصة وتوديعه الحار . وأجلسنى الموظف المختص فى آخر مقعد قرب الذيل وأرانى مكان القطن أضعه فى أذنى إذا أزعجنى صوت المحركات . وأرانى آنية من الورق تنفعنى إذا أصابنى دوار وقىء وأقفل على الباب . ورفع السلم وأديرت المحركات . وارتفعت وأنا أقول فى نفسى :

ـــ إذا سقطت الطيارة فإن الجرائد ستنشر الخبر تحت عنوان « ولكن الله سلم » . وستزف التهانىء إذ لم يكن بالطيارة من حسن الحظ ركاب . فما أجمل هذه النهاية !!

ولم تلبث الطائرة أن امتطت الجو وثبتت عليه ومخرت فيه ولم يعد يخيل إلى أنى معلق فى فضاء . بل أن فكرة الفضاء نفسها قد ذهبت من عالم إحساسى . وقلت فى نفسى :

ـــ عجباً . كم من الأخطاء تسبح فى أذهاننا كأنها الجراثيم . كلمة « الفضاء » واحدة منها . ليس هناك فضاء . وإن الطيارة لتسير على شىء هو أثبت مادة من الأرض تحت عجلات القطار

.. ونظرت من النافذة فإذا منظر لن أنساه . رأيت القطر المصرى تحتى كأنه خريطة جغرافية كبيرة مصنوعة من الجبس الملون . وما أنا إلا ذبابة أو مخلوق وهمى كمخلوقات « سويفت » يركب جناح بعوضة هائمة فوق هذه الخريطة . فهذا النيل العظيم بفروعه ورياحاته ليس إلا قنوات صغيرة كقنوات الحارات فى اليوم المطير ، يلعب فيها الصبيان ويقيمون عليها السدود من الوحل والطين . وهذه المدن الصغيرة أو الكبيرة ليست إلا خلايا نحل وأعشاش عصافير ، وهذه الحقول والغيطان فهى عجب آخر : كل أرض مصر الخصبة ليست إلا سجادة « مودرن » برسومها ذات الخطوط المربعة والمثلثة والمستطيلة . وقد صبغت بالأصفر والأخضر والأسود . ألوان ثلاثة هى وحدها التى تلعب وتجرى وتتوزع فى أنحاء هذه السجادة كأنها أنغام ثلاثة فى قطعة موسيقية

ولم أشعر قط أنى أتحرك . ولكنى كنت أشعر أن أحداً يحرك قليلا تحت أنظارى هذه السجادة .. هى التى تتغير فى أوضاعها وتكشف لى عن بعض حدودها ودقائقها . أما أنا فشىء ثابت ينظر من عل كأنه إله . وأمعنت النظر من الجهتين ومن النافذتين.

فرأيت طرف السجادة الغربى قد تهدل على شبه رمال ... إنها قد وضعت من غير شك فى صحراء . كما يضع الناسك سجادة الصلاة فى الخلاء .

و لم يمض قليل حتى جذبت يد خفية هذه السجادة فإذا بى لا أرى غير الصحراء تحت أنظارى ، كأنها بحر قد عبث النسيم بوجهه الصافى وأثار فيه تموجات خفيفة رقيقة لم تمسها بعد إصبع.

تلك بقاع بكر من الصحراء لا يمكن أن تفاجئها غير عين الله وعين بعض الطيور النادرة ، أنا الآن أحدها بفضل هذه الأجنحة المصنوعة من القطن والخشب !

وذهب هذا البحر الأصفر . وبدأت عينى ترى أطراف ذلك البحر الأزرق يبرق عن بعد كأنه فص فيروز فى كف الكون وأطلت النظر واقترب منى البحر حتى انطرح تحت أقدامى عارياً كتمثال امرأة .. من البلور . ورأيت فيه الثغر صغيراً كأنه يضحك ... عن بضع سفن شراعية بيضاء وبخارية كألاعيب الأطفال . فعلمت أنى قد وصلت سالماً .

و هبط بى ذلك الجناح السحرى . فإذا أنا فى مطار الدخيلة وإذ

الوقت الذى مضى بين القاهرة والإسكندرية لحظة كالحلم لم أفكر أثناءها فى موت ولا فى حياة ...

لقد كنت فى عالم لا يعرف الموت والحياة : لقد كنت فوق السحب !!

كن عدوا للمرأة

صحت فى يوم من أيام الربيع ، هب فيه على وجهى نسيم لطيف ووقعت عينى على أغصان تتمايل وأزهار مفتحة تتضاحك :

ـــ أيها الشيطان ! يا شيطان الفن ! يا سجانى وجلادى ! أطلقنى من أغلالك قليلا ! إنى أريد الحب ! إنى أريد المرأة !

فابتسم شيطانى و لم يزد على أن قال ساخراً :

ـــ المرأة مخلوق تافه !

ـــ كلا .

ـــ بلى . إنها ليست جديرة بك أيها الفنان الخلاق . إنها مخلوق تافه ، صنعت من ضلع تافه من أضلاع آدم وخرجت الجنة وأخرجته بسبب تافه . فهى فى الحقيقة ما وجدت إلا لتحشو ثغرات الحياة ، وتسد فراغ الأيام والليالى بالأشياء التافهة .

ـــ ولكن المرأة هى التى تدخلنا النعيم .

ـــ وهى التى تخرجك منه . وقد أخرجت آدم من قبل بالفعل . . فاحذر أن تقبل جنة وناراً من صنع المرأة . واحرص كل الحرص أن تكون سيد نفسك ، وأن تصنع لنفسك نعيما وجحيما لاتعرفهما المرأة . إن جنتك لا ينبغى أن يكون فيها حية ولا تفاح . فهى جنة هادئة صافية . . جنة الفكر والتأمل والخلق والإبداع إذا دخلتها امرأة حلت فيها الفوضى ، وانفرطت عقود درها المنظوم ، وتحطمت تماثيلها المرمرية . أما جحيمك فهو مملوء بعذاب الشك والقلق الفكرى ، وعذاب القصور عن إدراك الكمال الفنى ، آلام لاتفهمها المرأة كذلك ولا يمكن أن تعترف بها . فأنت ترى أن فى نفسك « منطقة مقدسة » لا أسمح ولا ينبغى أنت أن تسمح لامرأة بالدنو منها .

ـــ ولكنى أتوق أن أعيش لحظة مع امرأة !

ـــ تستطيع أن تعيش دائماً مع شبح امرأة . ولكن أى امرأة ؟! إن تلك التى سمحت لك بإدخالها جنتك ينبغى أن تكون امرأة لاككل النساء . إنها النور بغير مصباح . وهى قطرات النشوة بغير خمر . هى عروس لها جسم المرأة وكل شىء جميل فى المرأة ، متدثرة

فى رداء من خيالك الذهبى ، وكل ما هو جميل فى نفسك قد أسبغته أنت عليها حللاِ رائعة . هى ملكة جنتك التى توحى إليك بخير ما تخرج وما تبدع . فالمرأة التى لها شأن فى حياتك هى كما ترى ينبغى أن تكون من صنع يدك ومن مخلوقات رأسك .

ــ إن الحقيقة أحياناً أبرع من الخيال ، وإن الحياة لقديرة أحياناً أن تقذف إلى سطحها بلؤلؤة فى شكل امرأة تسطع من بين ملايين أصدافها . فلماذا أيها الشيطان لا تسمح لى مرة بما سمحت به للآخرين ؟

ــ لا أستطيع أن أسمح لك ، ولست أنت وحدك ، فلقد وجدت هذه الأسطر الدامغة فى ورقة منفصلة بين مخلفات بيتهوفن : «الحب ، ليس غير الحب ، هو وحده الذى يستطيع أن يجعل حياتى سعيدة . آه يا إلٰهى دعنى أجدها أخيراً ، تلك التى فى مقدورها أن تدعم فضائلى ، تلك التى قد سمح لى أن تكون زوجتى » .

..ومات بيتهوفن ولم يسمح له .

ــ لماذا ؟ .

ــ لأنك أيها الفنان عبقرية خالقة ، وجدت لتخلق وتعطى

لا لتسأل وتأخذ .

ــ مثل الطبيعة .

ــ نعم ، أنت والطبيعة سيان . كلا كما يعيش فى الحرمان . وكلا كما سر وجوده أن يعطى ولا يأخذ .

ــ آه ، ولكن الطبيعة قوية جبارة أما أنا فآدمى مسكين . إنها لاتتألم أما أنا فأتألم إذ أرى الحياة تزول من تحت قدمى و لم يسمح لى بحظ قليل من الهناء الذى يسخى به على بقية الآدميين !

ــ الآدميين ؟ ومن قال إنك منهم أيها الفنان ! عندما كتب عليك أن تضع على منكبيك رداء « العبقرية والخلق » خلع عنك فى الحال بعض خصائص الآدميين !

من الأبدية

لو كنت فى الأبدية ماذا أشاهد ؟

لطالما خطر لى هذا السؤال كلما شاهدت جنازة مارة فى الطريق . ترى لو سمع الميت ما يقال خلف النعش من الكلام ، ماذا كان يصنع ؟ لو علم أن هؤلاء المشيعين لايتكلمون عنه طول الوقت . وأن فيهم من يستنزل عليه اللعنة إذا طال المشى ، ولم يبد بعد أثر المسجد الذى سيصلى عليه فيه . وأن منهم من يسلى نفسه وجاره فى أثناء السير بحكايات ونوادر قد تدعو إلى الضحك والابتسام . وإن منهم من يتكلم فى عمله وتجارته وبيته وغيطه . لو علم الميت أن كل ماخصه هو من كل هذا الكلام الذى يدور خلف خشبته لا يعدو دقائق معدودات ؛ وأن كل ما أنفق من وقت المشيعين فى الخشوع لجلال الموت لا يتجاوز لحظـات . وأن الصمت الرهيب الذى كان يجب أن يحيط بنعشه لم يدم أكثر من

دقيقة ، ثم بدأ الهمس يعلو ، والهمهمة ترتفع ، والكلام والثرثرة يدويان بين الصفوف فى طنين كطنين الذباب ، ذلك أن الناس غير قديرين على نسيان أنفسهم والسمو عن هذه الأرض والارتفاع عن شؤون حياتهم العادية الصغيرة أكثر من خمس دقائق .

ومع ذلك ، لماذا نريد من الناس الوقوف أمام الموت موقفاً أجل من هذا ؛ إن الموت لايجل ولا يعظم حقاً إلا فى نظر من يموت ، فى تلك اللحظة التى يشعر فيها المحتضر أنه مفارق هذه الدار التى عرفها وعرف أهلها إلى مكان مجهول ، فراقاً لارجعة بعده . فى تلك اللحظة يرى المحتضر الدنيا تبتعد عنه كما تبتعد المحطة عن أنظار المسافر فى قطار . ويرى دموع المودعين من الأهل والخلان تتساقط على باقات الأزهار يقدمونها إليه فيخيل إليه أن ذهابه سيغير وجه الأرض . ولا يعلم أن هؤلاء المودعين سينصرفون من باب المحطة إلى شئونهم ضاحكين كأن لم يحدث شيء . ترى لو رأى الميت كل ذلك فى صندوقه وأعطى القدرة على الخروج منه والنهوض . أما كان يصيح فى الناس :

ـــ أتسمون أنفسكم مشيعين ؟ انصرفوا أيها اللكعاء !

إنى شخصياً لا أعتقد أن الميت يفعل ذلك أو يقوله لو قدر عليه . إن الميت إذ يجتاز عتبة العالم الآخر ويدخل منطقة « الصفاء » ينظر إلى الناس وأحوالهم من عل كما ينظر الإنسان إلى سرب من النمل يحمل جناح صرصار إلى ثقب فى أسفل الجدار . إنه يستكثر على الناس مجرد التحرك فى تابوته لينظر إلى ما يفعلون . إنه يستكثر على المادحين والقادحين حتى مجرد ابتسامة سخرية تعلو شفتيه الجافتين الباهتتين .

فهذا السؤال الذى ألقيته على نفسى لا معنى له عند الميت . إنما هو سؤال يمليه علينا غرورنا نحن الأحياء .

على أنى على كل حال لو تمنيت شيئاً بعد الموت . لرغبت فى أن أقول أنا رأيى فى الناس وقد تركتهم ، قبل أن يقولوا هم عنى شيئاً وهذا مستطاع . وقد فعل ذلك فيما أعلم أحد الأمريكان أو الإنجليز غريبى الأطوار . إذ سجل خطبة له فى أسطوانة فنوغراف وأوصى المشيعين أن يطلقوها على قبره تنطق بصوته وأنفاسه وضحكاته وكلماته . فماذا يمنعنى من أن أصنع مثله . وأن أقوم فى الناس خطيباً بعد موتى أقول فيهم :

« سيداتى وسادتى :

« أولا .. فلتجفف السيدات أعينهن حتى لايضيع كلامى بين الشهقات ، وحتى لاتضيع الدموع طلاء وجوههن وصبغة شفاههن. وهذا هو المهم . فإنى ما زلت حريصاً على أن تكون المرأة جميلة . فالجمال هو العذر الوحيد الذى به نغتفر للمرأة كل تفاهتها وحماقتها . عفواً . لقد نسيت أنى ميت وأنه ما كان يليق بى أن أوجه إليكن أيتها السيدات هذه الألفاظ فى مثل هذه اللحظة الرهيبة ، أنتن ولا ريب تصغين إلىّ الساعة والغيظ باد عليكن ، ولولا جلال الموت ، لألقيتن على قبرى أحذيتكن ذات الكعب العالى ، إن كل ما ستفعلنه الآن عقاباً لى وامتهاناً لشأنى هو أن تخفين فى الحال مناديل العبرات العاطرة وتخرجن أصابع الأحمر الناضرة ، وتنظرن فى مرآة الحقيبة الصغيرة وتهززن أكتافكن قائلة إحداكن للأخرى : « والنبى الدموع فيه خسارة !» وهذا ما أريد أن أصل إليه . وهذه نصيحتى الثمينة لكن معشر الأحياء من النساء : حذار أن تتلفن هدباً واحداً من أهدابكن الجميلة من أجل شىء على هذه الأرض . فإن الأرض كلها لا تساوى هدباً واحداً

من أهدابكن !

« أما أنتم أيها الرجال والأصدقاء والمعجبون ، المرتدون السواد على فقيد الأدب ، المحزونون لفداحة المصاب الجلل ، الباكون لما رزئت به العربية والناطقون بالضاد .. إلى آخر هذا الهراء الذى سيملأ به خطباؤكم وشعراؤكم تلك المراثى البليغة والقصائد العصماء .. وإنى لألمح الساعة جيوب بعضكم منتفخة بشعر ونثر قد كتب خاصة للتأبين . ولعل أكثره قد وضع قبل الاحتضار حتى يكون معداً للإلقاء فى الوقت المناسب . ولعل إحدى تلك القصائدقد نشرت اليوم فى صحف الصباح بينما نشر إلى جانبها خبر الوفاة . كأنما القصيدة العصماء قد خرجت من صدر صاحبها ساعة خروج روحى من صدرى ! لم كل هذا الإسراع ؟ ألا يتركنى الأدب وشأنى وقد صرت تراباً . أيظل يلاحقنى شيطان الفن ويصيح فى أثرى وأنا أفر منه إلى عالم أرجو أن لا أرى وجهه فيه . أما يكفيه أنه أضاع علىّ حياة نابضة . أنا الذى صنعه خالقه من لحم ودم ، ووضعه فى دنيا جميلة زاهرة ، وقال له : « انطلق وعش حياتك فى هذه الحياة » . فلم أفعل ذلك . ولكنى أحلت

لحمى ودمى إلى ورق ومداد . آه .. إنكم لو أنصفتم معشر المشيعين لوضعتم جثتى مع كتبى وأشعلتم النار فى كل هذا . عجباً . إنى أبصر أحدكم وهو شاب فيما أرى لا يريد أن يصدق ما أقول . وإن فمه ليرتجف كأنما هو يريد أن يصرخ متحمساً : « فى ذمة الخلود ، فى ذمة الخلود ! » .

« أيها الصديق الصغير ليس من اللطف أن أضحك الساعة منك ومن « خلودك » ، وأن أبدد تلك الأحلام التى تخيم على عشرين ربيعاً من حياتك النضرة كما تخيم خمائل الأزهار على خلوة المحبين ، ولكنى أقول لك إن كلمتك هذه إن صلحت لسنك وكان لها عندك أعمق المعانى ، فأنها عندى الآن لا معنى لها ؛ ولست أدرى ماذا تقصد بها ! تقصد أنى قد أكون تركت لكم بعض آثار ربما بقيت.فليكن . ماذا يهمنى أنا من ذلك ؟

« وبعد ... لا أحب أن أستبقيكم وقوفاً أمام قبرى أكثر من ذلك فإن من بينكم من قد ارتبط بمواعيد سابقة وهو يختلس النظر فى ساعته من آن لآن . وليس عندى بعد ما أقول لكم ، غير أنى أرى فى أوائل صفوفكم أصدقاء لى لا يمكن أن أستخف بعواطفى

نحوهم . ولعل صداقتهم هى خير ما خرجت به من تلك الدار .

« والآن ، اسمحوا لى أن أسكت سكوتى الأبدى وأنا أرجو منكم أن تنصرفوا إلى شؤونكم كأنه لم يحدث شىء فلست فى حاجة إلى كلامكم ؛ وإذا أردتم أن تعقبوا على قولى هذا بشىء فى دنياكم تلك ، فضعوا مكان أسطوانتى هذه : أسطوانة موسيقية لأحد الموسيقيين الذين كنت أحبهم ، تلك هى اللغة الوحيدة التى أستطيع أن أفهمها عنكم فى كل وقت ... والوداع » .

فهـرست

رقم الإيداع ٣١٠٨ / ٨٨
الترقيم الدولى ٥ — ٠٣٨٦ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com